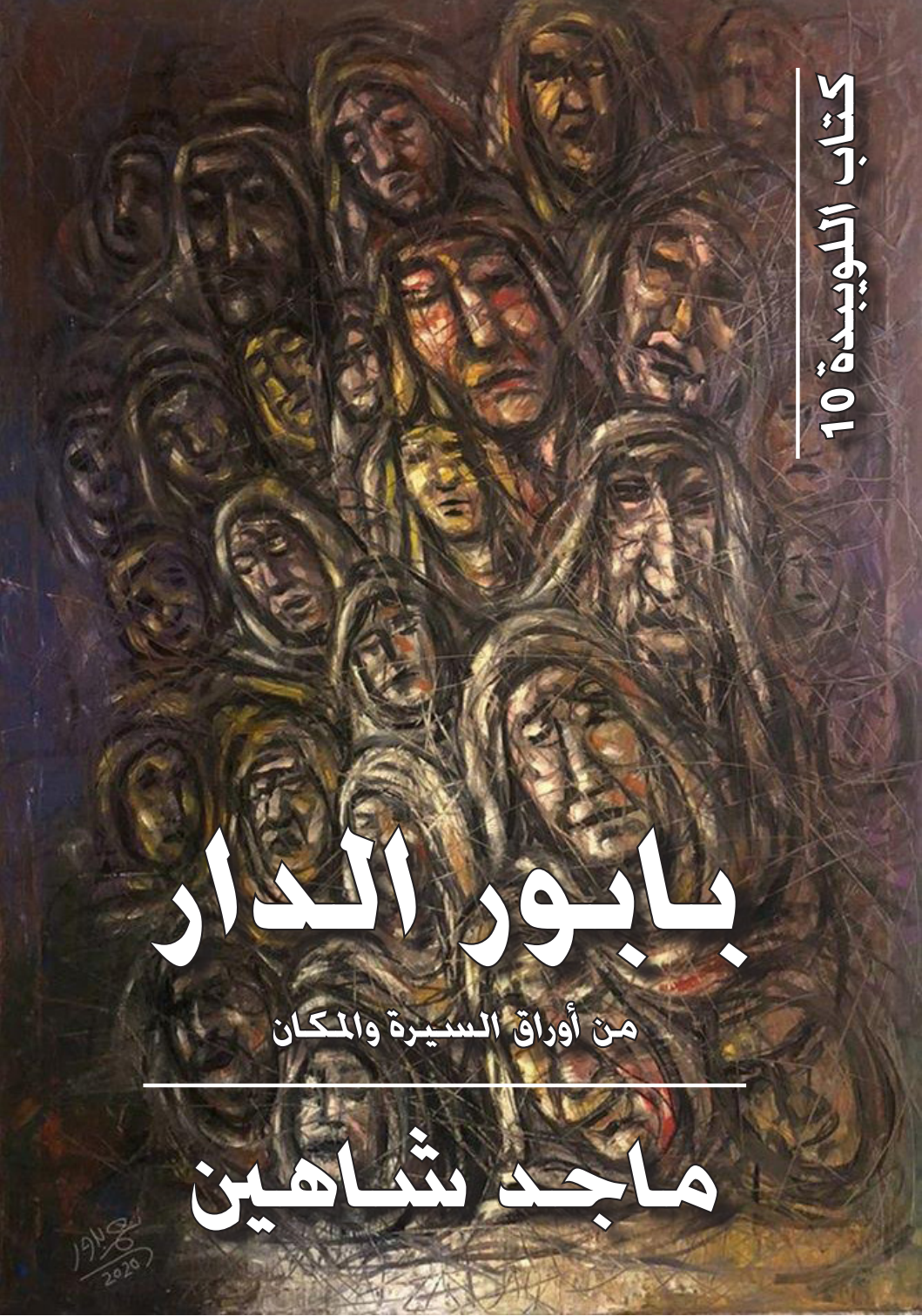

كتاب اللويبدة 10

بابور الدار

من أوراق السيرة والمكان

ماجد شاهين

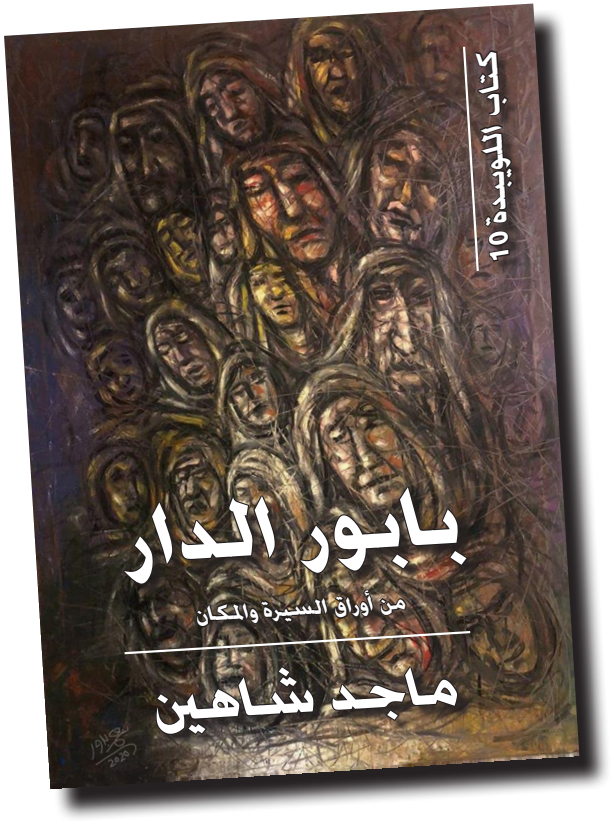

بابور الدار
من أوراق السيرة والمكان
كتاب
حزيران/ يونيو - ٢٠٢٠
المؤلف: ماجد شاهين
الناشر: مؤسسة اليوم الأردني للنشر والتوزيع

ماجد شاهين

ولد (ماجد كامل محمود شاهين) في30/11/1956 في مادبا
أنهى الثانوية العامة في مدرسة مادبا الثانوية للبنين سنة 1976
عمل في قطاع الاتصالات منذ 1979 ولغاية 2000 ثم انتقل للعمل في شركة الاتصالات الأردنية حتى العام 2005
عمل محرّرا و كاتبا وسكرتير تحرير في مجلة مادبا الشهرية التي صدرت عن مديرية ثقافة مادبا على مدار سنتين في تسعينيّات القرن الفائت 1996 ـــ 1997
عمل مسؤولاً للقسم الصحافيّ في بلدية مادبا الكبرى وناطقاً إعلامياً فيها(2008 – 2010) ومندوباً ومحرّراً وكاتب مقالة يوميّة في صحيفة (العرب اليوم) (2004 – 2006)، وكاتب مقالة ومحرّرا وسكرتير تحرير في مجلة (راما) الشهرية (2004 – 2007)، التي كانت تصدر في عمان عن مؤسسةراما للخدمات الإعلامية والصحافيّة
عضو رابطة الكتّاب الأردنيين من 1984، وعضو الهيئة الإدارية لفرعها في مأدبا(2012 / 2013) وعضو اتحاد الأدباء الكتاب العرب، وكان عضو مكتب تنفيذيّ لمادبا عاصمة الثقافة الأردنية 2012، و كان عضوا مؤسّسا و رئيس نادي أصدقاء الكتاب في مادبا سابقاً في 1998ـــ 1999
نشر العديد من القصص والمقالات والنصوص والتحقيقات الصحفية وحرّر في العديد من الصحف الأردنية والعربية وعلى فترات متقطعة منذ 1980
ـــ يكتب الآن في عدد من الصحف والمجلات الإليكترونيّة

* نشر في الصحف المحليّة والعربية والمجلات والمواقع الإلكترونيّة ما يزيد عن (2500) مادة مكتوبة تقع ضمن (مقالات / قصص / نصوص / قصائد / خواطر / سيرة وذاكرة مكان) بالإضافة
عدد كبير من التقارير والتحقيقات الصحافيّة .* .. كتب مخطوطة جاهزة للنشر :
1 ـــ كتاب مخطوط بعنوان : مطحنة الشرايط و سروال جدّي ! (مقالات وكتابات ساخرة)
2 ـــ كتاب مخطوط بعنوان : سيرة الولد ! (كتابات متفرّقة في السيرة و ذاكرة المكان)
3 ـــ كتاب مخطوط بعنوان : ماء الأربعـــاء ! (مجموعة قصائد)
4 ـــ كتاب مخطوط بعنوان : برتقالة الجدّ ! (مجموعة قصص قصيرة و قصيرة جداً)
5 ـــ كتاب مخطوط بعنوان : قمصان الكلام ! (نصوص قصيرة)

المؤلفات الأدبية: -1 " ورد أسود" (نصوص ومقالات) ـــ مطبعة مادبا (1994). 2 -" شبابيك أجراس " (قصص) ـــ مطبعة مادبا (1996). -3 "دوائر القلق" (قصص) ـــ رابطة الكتاب الأردنيين ـــ دار الكرمل للنشر والتوزيع (1997). -4 "حيطان التعب"، سيرة ونصوص ـــ عن مادبا عاصمة للثقافة ـــ وزارة الثقافة / مطبعة السفير 2012

لا بدّ من كلمة ..

كلمة شكر إلى الفنّان المبدع الجميل عمر بدور الذي قدّم لوحة الغلاف، التي تعبّر عن تشابك الأجيال في علاقات إنسانيّة تنتج وعياً وادباً وثقافة وفكراً وسيرة حياة .

شكراً لكل هذا الجهد الجميل .

أمّا "اللويبدة"، ورغم أنّني غدوت من أهل الدار ومنذ زمنٍ بعيد، فلا مناص من الإشارة إلى البهجة التي تصنعها هذه المجلة بكل تفصيلات عناوينها وملامحها ..

ولا ينفع أن نتوقف عن الكلام من دون أن نبعث المرحبا الوافرة النقيّة والتحية والمحبّة إلى "حارس البهجة والصبر" المدهش الصديق باسم سكجها .. هذا الإعلامي والكاتب والصحافيّ العتيق الذي لا يغفل المطارح الجميلة، ولا ينسى ذاكراتنا.

شكراً للمدهش و المثابر والمتفائل " باسم سكجها " شكراً لـــ أبي إبراهيم و فريق اللويبدة الجميل .

م ش

كلمتي

هذه أحوالي وسيرتي و أسواقي و منازلي قليل من صباي ، في النصوص لا يلتئم شمل " فقه السيرة " ولكن يلتئم فقه الوجع والذاكرة وينتجان معاً أطراف حكايات و مفردات و ما قد ينفع للروي وللقول !

هنا ، نطبخ مفرداتنا على " بابور الدار " ،و اخترنا عنوان الكتاب بالاسم ذاته ، لأننا عرفنا ذاكرة البابور و أدركنا منذ زمن بعيد ما كان يفعله الآباء والأمّهات لكي ينضج طعامنا و ينضج وعينا !

هذه تجربة أخرى إضافيّة في " اللويبدة " اجترحها الصحافيّ والكاتب اللامع الصديق باسم سكّجها .

هنا في " بابور الدار " نحاول وأكثر .

ماجد شاهين
حزيران 2020

(1)

ماذا تفعل الكتابة ؟

لم أكن أكتبُ لألتقط حاجتي من الخبز أو الزيت ، بل كنّا منذ أربعين سنة و أزيد نكتب لكي ينعم الآخرون بخبزٍ ناصع و رغيف نقيّ من غير شوائب ومن دون وجع !
كنّا و مئات الكاتبين ، نسعى إلى أن يحقّق الناس احتياجاتهم و يتمكنوا من الحصول على الحدّ الجميل منها من دون أن ينالهم ضنك عسير في العيش أو من دون أن يدهمهم وجع السؤال و من دون أن تحرقهم شمس الطوابير و ازدحامات الحاجة !

كنّا نفعل ذلك ، أيْ نكتب ، لكي يطيب الهواء في حاراتنا و يصير الرغيف في متناول اليد و تغدو الكلمة متاحة للناس و لا تُسدُّ الدروب عند أحلامهم !
كنّا نفعل ذلك ، و نسعى فوق ذلك إلى أن تتسع مطارح الاستنارة ويغدو الخير عنواناً و يعمّ الحقّ .
و إذا عمّ الحقّ تتسع الحريّة ! ..

و الآن و بعد أربعين سنة و أزيد ، لا نزال نبحث عن " لقمة الخبز" ولا نريد الفاكهة !

ما الذي فعلته الكتابة ؟
لقد أهرقنا حبرنا ومفرداتنا وأقلامنا، ووزّعنا أوراقنا في الدروب وعند حوافّ الشبابيك في النصاعة وفي الوجل ..
فما الذي أنجزناه ؟

(2)

أماكن البهجة !

المدن التي لا تترك فيك أثراً ، لا تعدّ لياليها ولا أيّامها !
والأثر تظلّ تهجس به و تقوله و تروي صوره و أحداثه وأسبابه، ولا ينمحي بالمرّة ..

وكذا تفعل الأماكن القريبة والحارات والأرصفة والبيوت العتيقة وحتى الحجارة العتيقة والعشب الذي يخضرّ بينها وينمو .

الأماكن التي تترك في الذهن والوجدان "بصمةً و علامةً" ، هذه أماكن لا تبرح الروح و تلتصق بها و إنْ انتقل صاحبها إلى غير مكان .

في مثل تلك المدن و هذه :

لا ينسى المرء أباريق شاي الجيران ولا أشجار ليمونهم ،
ولا ينسى صحن الفاصولياء بلا لحمة ،
و لا ينسى البيلسانة التي كانت تتدلّى إلى الشارع فتصنع ظلاً للعابرين ،

ولا ينسى الشوارع التي كانت ناصعة إلاّ من " بوح يرقّ معه

القلب" !

في مثلٍ تلك الأماكن والمدن والأزقة و الساحات ، يظل المرء مستيقظاً تملؤه الفطنة ولا يغيب إلاّ لكي يحضر مرة أخرىّ .

هنا ، في البلاد والمدن والتراب :

يسترجع المرء و يرفع عالياً أسباب الفرح والبهجة و يقرّبها إلى روحه لكي تستمر الحياة .

وإنْ دفعت الذاكرة إلى السطح " صوراً من أسباب الوجع "، نحاول أن نبتسم و نجد ما يجعلنا نعدّها أحوالاً غير ظالمة .

الأماكن التي نحبّها ، نحاول أن نعلي من شأن بهجتها وإن بدت كئيبة .

(3)

حجارة عتيقة !

للآن ، نكتب السيرة كما عرفناها، أو كما رواها " ثقات الرواة"، و لم نستقرض سطراً من ذاكرة أحد نجهل حضوره في التاريخ والتأريخ، أو صفحة من دفتر لآخرين كتبوا من دون ملامح التراب والحجارة الباقية .

السِيَر لا تُكْتَب بالاشتهاء، أو لتسويد بياض الصفحات وحسب ، بل يُعاد استحضارها من الروح والذهن الناصع و جيوب الآباء والأجداد التي تعبق برائحة القمح ولونه .

نكتب السيرة بما يُوحي به صانعو الوقت ، وإن رحلوا ،

و نكتب السيرة بما عشناه في الشوارع والمدارس والبيوت والأسواق والحافلات و المدن التي لا يزال فيها الكثير مما نحبّ والكثير ممّا يستحق الاعتناء والسرد والروي والتصوير .

نكتب عن أماكن ينفع في حضرتها الصمت والتأمّل ،

و نكتب عن مطارح لم تغادرها رائحة خبز الأمّهات ولا حتى رائحة " حِنّائهنّ " ،
ونكتب عن دروب الحصّادين، حين كان للحصاد روح و بهجة

وقمح !

المدارس العتيقة تحضر في النصوص ،

وتحضر الشوارع التي بلا إسفلت ،

ودكاكين " الجميد " و" الهيشيّ " و " الحلقوم " ،

وكراسي القشّ .
و الجنازات التي كانت " قليلة الحضور " وكيف كانت تعبر في الشوارع المؤدية إلى المساجد والكنائس، محمولة على أكتاف الناس .
ونكتب عن انتظاراتنا في " الأفران " لكي نرى النار التي تُنضج خبزنا!
ما أطيب أن نكتب عن "رغيف " يخرج من " بيت النار " بلا شوائب .
والرغيف هنا ، يكون الخبز ، ويكون الخير ، ويكون الحب ، ويكون الطمأنينة .

..

لا نستقرض سطراً خارج السياق ،
و لا نستحضر ما لم يكن حاضراً !

..

للآن ، و في غير حين ، نستعير في الروي صوت الحجارة العتيقة و رسائل الذين حفروا في الوعي والوجدان حضوراً مبهجاً !

(4)

بعد صلاة العشاء !

كنتُ في كلّ مرّة أصعد فيها إلى سوق مادبا العتيقة، أنادي رفيقي في الرحلة وأقول له : تعالَ نقترب هنا ، فرائحتي في التراب لا تزال على حالها ودندنات صوتي الأول تصّاعد بين حين وآخر فتملأ السوق بهجة وشجناً !

اقتربنا من التراب وقلت له : هنا أوّل الحكاية !

هنا ، أقصد بها " حوش عتيق " لدار عتيقة وراء أطلال مقهى عمر ، كانت عائشة تعيش من جديد حين جاءها المخاض بولدها ماجد .

ذلك كان قبل نحو 64سنة .

و كنا، في كل مرة نروح فيها إلى السوق ، ننتظر أذان العشاء من مسجد السوق / المسجد القديم ، الذي تعلّمنا فيه الفاتحة أوّل مرة قبل 55 عاماً ..

وأنطلقنا بعدها إلى دروب الحكمة والكلام والكتابة والانتظار والترقّب والانكشاف والضحك حتى الصراخ والنوم .
و كنا حين نفرغ من أداء الصلاة ، نغادر إلى حيث كانت الطريق

تسعى بنا .

كنّا ، بعد خروجنا من المسجد ، نعبر شارع سوق الذهب الملاصق والمجاور لحارات السلايطة والمصو والمدني والصناع والعجيلات وغيرها ، وذلك في طريق رجوعنا إلى أول المشوار .

...

و قبل وقت قليل ، قبل السوق ، كنّا اقتربنا من شارعي القديم ، جوار منازل أبي دقر الخماش و كنيسة الكاثوليك ، وهناك ناديت على ولدٍ في الطفولة واليفاعة ، ناديتُ على أنا .. صرخت بصوت خفيض ثمّ صعد منّي الصوت وملأ الأرجاء ، فجاء من هناك كائنٌ مترهل البدن ، يجرّ قدميه ، وساقاه لا تكادان تحملانه .

جاء ماجد !

جاء الذي كان في المكان ، فسألته : ماذا كنتم تفعلون هنا ؟
أطلق زفرته وتنهيدته الطويلة الحادة الناشفة المؤلمة المتهالكة ، وقال : هنا ، لم نفعل أكثر مما فعله مجايلونا في اليفاعة .
هنا لعبنا قليلاً و تعبنا كثيراً .
وأردف متابعاً جملة القول : هنا أحرقنا مكاتيبنا العتيقة و دفاترنا و أوراقنا التي تعلّمنا منها أوّل الحبّ وأول الحياة !
كنا نقرأ ونحرق خشية أن تهرب الأوراق إلى غير عناوينها .
هنا كانت مفاتيح القول والحكمة والوعي .

هنا في قلب مادبا العتيقة ، كانت لنا قلوب تنبض وكانت لنا مشاوير ناصعة وكانت رسائلنا وأول الكلام .

(5)
الحكايات وصانعو الدهشة !

عرفتُ في زمنٍ انقضى ومنذ ستينيّات القرن المنصرم ، راديو الصندوق ، وكان نادر الحضور أو أنّ وجوده ظلّ محصوراً في أماكن قليلة ، وكان يتركز وجوده في السوق العتيقة في المدينة ، وسمعت من خلاله عناوين كبرى في الغناء والخطاب والمدّ الثوريّ العربيّ ، وكانت سيدّة الغناء العربيّ حاضرةً في كل مرّة ، لذلك كتبت عنه كثيراً ولا أزال أستحضره كلّما دهم الذهن والقلب والروح "استذكار أو شجن أو شوق" ، وعرفت الراديو الكبير وسمعت من خلاله غناء وخطابات وبلاغات ولا أزال أتذكر أنّنا كنا في مرحلة اليفاعة أو الطفولة المتقدمة ، نتوقف ونقف عند محالّ تجارية أو أماكن تتيح لنا الإنصات والاستماع والإحساس بالزهو رغم " قلّة الخبرة " !

كان الراديو حاضراً في صالون الحلاقة الذي تعود ملكيّته لـ"أحمد العباسي " وكان يقطن في العاصمة ويجيء إلى مادبا في الصباح، ويغادرها بعد العصر ،

وكان هناك راديو صندوق مدهش عند " سمعان مراد السرياني " صاحب مصبغة ومكوى في أول السوق من جهة المثلث السياحيّ عند كنيسة الروم ، وكان راديو ضخم يقبع في مقهى عمر الواوي ، المقهى الأكثر شهرة وعراقة في المدينة في وسط السوق القديمة .

راديو الصندوق كتبت عنه وذكرته هنا وهناك ، لأنني شاهدته و سمعت من خلاله ما يمكن لنا أن نسمعه في ذلك الحين ، و لو كنت لم أشاهدته لما استذكرته بهذه الحماسة والنصاعة وفي تلك الأماكن .

منذ ستينيّات القرن الفائت ، عرفنا راديو الصندوق ،

ومحمص بن و بزر "حنا زاده" ، ومكتبة فراس والكرامة، ومحال اللحوم والخضار والمربعة ودكاكين الراحلين الحاج محمد البشير والعم سالم الفراج وغيرها الكثير.

تلك التي كتبنا عنها بتفصيل وتكرار غير مرّة لكي نؤكد مكانة تلك الأماكن في الذاكرة الشعبية اليومية وفي حياة الناس وبوصفها علامات مهمّة وفارقة في يوميّات الناس ومحطات للشراء وللاستراحة وللحكي وربما للعب النرد وورق الشدّة وللفرجة ولانتظار الصلاة في المسجد والكنيسة وللمواعيد الجميلة .

والأمكنة كانت كذلك محطات لمرور وعبور مواكب الفرح الشعبية ولتشييع الجنازات .

وهذه عناوين قليلة من بين عناوين ومطارح وشوارع ومنازل وأسواق كبيرة فيها حياة و ذاكرة لا يمكن سردها في هذا الكتابة المُسْتَعْجَلة .

..

قد يعرف المرء الكثير من الوقائع والأماكن بالقراءة أو بالاستماع إلى أجيال سبقته ، لكن العيش في التاريخ ذاته والأماكن ذاتها ، يجعل المرء واحداً من أجزاء الحكاية و الأقرب إلى فهم ما تقوله حجارتها وما كان يصنعه الباعة والعابرون و ما كانت تقوله أصوات كثيرة هنا وهناك .

ثمّة باحثون في التاريخ والمكان ينقلونه عمّن سبقهم من الرواة أو من الذين انخرطوا في المشهد ، وثمة آخرون صنعوا المشهد وشاركوا في تكوين زواياه وقد يكون بمقدورهم الغوص في عمق الوقائع و " الخرايف " و الفكاهة الشعبية .

المتأمّلون وحدهم لا يصنعون الأمكنة وذاكراتها ولو كتبوا وسوّدوا مئات الصفحات، لكنهم ربّما أنجزوا مشروعاً في التوثيق بالاستناد إلى ذاكرات أخرى و سيرة زمان ومكان يرويها من عاشوها أو من تجمّعت عندهم أطراف خيوطها .

أمّا حارسو الذاكرة و أبناء الحياة اليوميّة من مرتادي السوق و أصدقاء الحجارة و الذين كانوا يعرفون " أين يضع صاحب الدكان مطربان القضامة أو الملبس أو نكاشات البوابير أو إبر الخياطة " ، فأولئك هم الرواية ذاتها والحكاية وصنّاع الدهشة .

(6)

الكبريتة
و رسائل العاشقين!

كان يدسّ الرسالة المطويّة بصعوبة في علبة الكبريت (الكبريتة أو علبة أعواد الثقاب) الفارغة ويرميها إلى الشباك القريب من الرصيف ..

وكان صبية أشقياء يراقبون المَشهد و يتسابقون لالتقاط (الكبريتة) التي لم تكن دائماً تعبر الشباك أو كانت تقع في الطريق .

العاشق كان يختفي بعدما يرمي رسالته والبنت المعشوقة كانت تحاول دفع الصبية لكي يوصلوا الكبريتة / الرسالة .

كثيراً ما كان الصبية يفاوضون الفتاة إمّا في النافذة أو يروحون إلى باب الدار .

الفتاة كانت تحاول الانفراد بكبير الصبية وتقدم له رشوة على شكل (قطعة بسكويت) أو حبتي ملبّس أو شلن لشراء ما يرغب .

الصبية المشاغبون كانوا يرفعون من سقف مطالبهم و يلوّحون بإذاعة وإشاعة ما تتضمنه الرسالة و قد يهددون الفتاة

بتسليم الرسالة إلى أهلها وبخاصة شقيقها غليظ الطبع والوجه والكلام .

تنصاع الفتاة وترفع قيمة المكافأة / الرشوة إلى عشرة قروش . فتهدأ نفس العاشقة و تحصل على وعَد من كبير الصِبيَة أو الصِبية أنفسهم بأن يكتموا السرّ والحكاية .

..

هكذا كان العاشق المرتبك يجرّ حبيبته إلى ارتباك وخسارة ماليّة .

..

كانت حقبة رائعة . تلك التي كان فيها العاشق يرمي رسالته إلى نافذة فتاته .

كانت الكبريتة صندوق بريد وربما كاتم أسرار للعاشقين .

(7)

أين المكاتيب ؟

كنتُ في الدروبِ الشاقّة وفي الأزقّةِ التي من وجعٍ و شجن، أحصي عثرات الحجارة والشجر والشبابيك و أنصاف الأبواب و"الدندنات " التي تسرقها البنات في زاوية و يرفعنها إلى القلوب بصوتٍ خافتٍ أو ينوس ،خشية أن يسمعهنّ من لا يعرف "حكاية الهوى " ...

كنت أحصي ضحكات صغيرة تحت النوافذ و أحصي مواعيد قليلة كان يسرقها فتىً بهيّ كلّما دهمه شوقٌ أو كلّما رقّت عيونه ..

وكنت أحصى المكاتيب و الكلام الذي كانت صبيّة نقشته بالحبر الخفيف على أوراق شجرةٍ تدلّت أغصانها إلى وراء الجدار !

الجدار ؟

كنت أحصي الجدران وحيطان التعب ،

كنتُ أراقب صحون الدموع تحت الشبابيك وأدلقها قبل أن تفيض في أباريق ناصعة من غير سوء و أحفظها إلى حين حاجةٍ أو وجدٍ أو إلى حين ينفع أن نكتب بالدمع !

كنت أحصي فاكهة نضجت للتوّ في وجوه الصبايا وأعدّ أشواقاً تدلّت من مناديلهنّ أو تطايرت في المكاتيب !

وأيّ مكاتيب ،

وأين المكاتيبُ ؟

ومن سرق منّا المكاتيب ؟

كنتُ قبل أن تضيع المكاتيب والعناوين وقبل أن تشحّ ماء الدروب .

كنتُ وكنّا ، بالحلم والدمع والترقّبِ و الانتظار، نصنع أوقاتنا!

من سرق منّا الأوقات والمكاتيب ؟

(8)

عن حصّة الإنشاء و ذاكرتي !

كنّا نسمّيها " حصّة الإنشاء " في اللغة العربية ، والمقصود بـــ " الإنشاء اللغويّ " أن نبني حكاية أو نصّاً أو خاطرةً !

الإنشاء في زماننا كان يعني البناء ،

صار اسمها ، تلك الحصّة ، حصّة التعبير !

المرّة الأولى التي أتذكّر أنّني كتبت فيها " موضوع إنشاء " أو موضوع تعبير ، كانت في العام 1965 من القرن الفارط أو المنصرم .

كنتُ في الصف الابتدائي الثاني في مدرسة مادبا الابتدائية الأولى ، هكذا كان اسمها !

(مبناها قائم إلى الآن و لم تغيّره السنوات و المبنى كما أشرت سابقاً تعود ملكيّته إلى العمّ المرحوم الشيخ شريف أبو الغنم) .

..

في الثاني الابتدائيّ (1965) ، كانت القراءات الأولى في عناوين

خارج إطار المنهاج المدرسيّ ، وأبرزها في الصحف والجرائد في تلك الأيّام (وبخاصة صحيفتي الدفاع والجهاد ذائعتي الصيت في حينه) .

ساعدني و دعمني وشجّعني في الأمر ، بل وحرّضني إلى القراءة وعليها ، معلّمان طيّبان نقيّان مؤثران ، المعلّم الصديق المرحوم علي عبد المجيد أبو الغنم و المعلّم الصديق المرحوم محمد عليان الشوابكة !

كلاهما ، وجدا في الولد ماجد حالةً تستحقّ الانتباه ، فشجّعاه و تركا في نفسه أثراً لا ينمحي وتركا في ذاكرته ما لا يمكن إغفاله .

..

و بعد ذلك ،

كان معلّمون رائعون يتركون أثراً تلو الأثر وقيمة تلو القيمة في درب وسلوك الولد والفتى ماجد في مراحله المتلاحقة في المدرسة أو في سواها ، و أخصّ هنا من كان يعتني بلغتي العربيّة و بحصّة الإنشاء و بخطّي الجميل و بصوتي و بمشاركاتي في الاحتفالات المدرسيّة وغيرها ، ولا أنكر أدواراً عديدة أداها معلمون آخرون و كلٌّ على طريقته .

أخصّ بالإشارة والتقدير والاسترجاع ، عدا من أشرت إليهم من المؤسّسين أعلاه ، أساتذةً ومعلّمين أسهموا في " تخصيب " التجربة و دعمها و متابعتها ، منهم من كان معلّما للّغة العربيّة و منهم من كان غير ذلك :

المعلم الصديق عبد الغني النصّار الفقهاء ،
المعلّم الصديق المرحوم خلف الهروط ،
المعلّم الصديق المرحوم عيسى شحادة ،
المعلّم الصديق عبد النعيم أبو عودة المصاروة ،
المعلم الصديق مزعل حدادين ،
المعلم الصديق غالب أبو شامة ،
المعلّم الصديق المؤسّس المتابع الحقيقيّ (بعد الأوائل) فوزي الطبّال ،

وكانت هناك إضافات لا يمكن إغفالها من الأستاذ الصديق سليمان المشاعلة والأستاذ الصديق أكرم المصاروة و الدكتور الصديق عبدالله الرضاونة ومعلّم الفيزياء المهتمّ بالأدب والثقافة الصديق محمود إمواس المناصرة و الأستاذ الصديق محمد أبو إرقيّق و الصديق المرحوم الأستاذ محمد السوريكي .

وغيرهم ممّن أثروا تجربتي و أحاطوها بالرعاية والحنوّ والمحبة والانتباه .

أنا تحدثت عن الذين منحوا تجربتي في اللغة العربية (قراءة وكتابة) انتباهاً و كذلك الذين كانوا يحرّضون ذائقتي و يدفعونها إلى التميّز ، ولا يمكن أن أتجاهل من شدّ من أزري وساندني من أجيال عديدة من المعلّمين الأوائل الذين لا يمكن حصر أسمائهم هنا .

و هنا كتبت عن ذاكرة تخصّ المرحلة المدرسيّة وأحوالها وعن معلمين تركوا أثراً في الجانب المطروح وحسب .

فيما هناك أسماء عديدة لمعلّمين متميّزين قدموا النصح والرأي والنقد و تابعوا وآزروا و قرأوا نصوصي الكثيرة و منحوها تجربة نقدية كبيرة و منهم الصديق الأستاذ الناقد والمثقف حنا القنصل .

وسيكون هناك حديث عن أدوار أخرى لمعلّمين آخرين في مجالات الحياة العديدة .

..

كنّا نكتب عن الورد كما نراه ، وكما نشتهيه ، لا كما يطلب المستمعون !

كنّا نكتب عن " الماء " كما نشربها ونتوضأ بها و يتعمّد شركاؤنا بها ونسقي معاً أشجار حياتنا و نرشّ بها دروبنا وحين تفيض دروبنا من خير الغيم الذي يرزقنا به ربّ العالمين .

لم نكتب عن ماء من دون أن " نعطش " أو " نشرب " أو من دون أن نغسل وجوهنا أو من دون أن نقدّمها لعصفور أتعبه العطش.

..

حصص الإنشاء تلك كانت بين الأعوام 1965 و 1976 من القرن العشرين .

..

تلك كانت صفحة قليلة من سيرة طويلة عن " حصّة الإنشاء " .

(9)

صحن الفول !

في الطريق إلى داركم ، ثمّة أشياء تصنع الحياة :

ولد يدبّ على الأرض بلا حذاء و يحمل " صحن الفول " الذي كان جلبه من مطعم مجاور .

بنت بثوب مهتريء ترمي كيس نفايات صغير إلى " تراب قريب".

امرأة تنادي جارتها وتدعوها إلى " فنجان قهوة " !

شاب يقف هناك في نافذة بعيدة يحاول أن يرى غصناً عند دالية .

رجلٌ يعود لتوّه من " المصنع أو المعمل أو المنجرة " ، تتدلّى في يديه الثنتين أكياس ملوّنة فيها فاكهة و بطاطا .

وعابر طريق " يكّح " و يصعد بالسعال ، كأنما ينادي .

وعمّال وافدون يؤوبون إلى بيوتهم في شارع مجاور .
وثمّة باعة جائلون ينادون في " مكبرات الصوت " أن تعالوا إلى

" أدوات الغسيل و التنظيف " !

وأحدهم في الجوار لا نراه ، يتمخط في كم قميصه .

وبقايا سيجارة مشتعلة يرميها أحدهم من " بلكونة " بيته، تكاد تحرق وجه طفل يلهو في التراب .
...

هذه الأحوال تصنع الحياة حين نعبر سالمين إلى حيث أنتم .
ثمة دكاكين قريبة و باعة وقتٍ و باعة سراب وباعة حكمة .
..

في الطريق إلى داركم ، تتسع مساحة الحذر و تستيقظ " حواس الانتباه " لكي لا نفقد أصابعنا .

لكنّها المطارح التي تمور بالحياة .
..
المهم أن لا يندلق صحن الفول .

(10)

امرأة و قضامة !

أحدُهم يريدُني أن أكتبَ عن " الرغيف الذي فقد استدارته " و عن القمح والزؤان ، و تلك تريدني أن أكتبَ عن مواعيد أرجَأتْها بسببٍ من فقدٍ و غياب .. و آخر يريد أن نكتبَ عن " هتافٍ " ربّما لو استعدناه يربكُ الخوفَ و يطيحُ البلادةَ !

عديدون يريدون " كتابةً طازَجَةً " عن بلادٍ و دكاكين شُحّت فيها " القضامة " و غاب عن رفوفها " مطربان الملبّس " ، و يريدون ان أقول كلاماً عن مَقعَدين صغيرين (كرسيّين) من "الخشب و القشّ " ، كان ختيارٌ عتيق يركنهما عند دكانته لكي يجلس من اقترب من تعب أو من رغب في استراحة بين شارعين أو بين دار و سوق أو بين فاكهة و فاكهة !

هل ينبغي أن يستريح المرء بين فاكهتين ؟

ربّما ، فـَ فاكهة الجوى يلزمها أن نتنفس كثيراً و نستنشق ما تيسّر من هواء ولو في الدرب القليل أو في الطريق المتعرجة!

..

امرأةٌ واحدة ، من بين " فستقات الحياة و مصابيحها التي لا

تنطفيء " ، تلك امرأة من طرفٍ قصيٍّ قريبٍ ، من زاوية مربكة مرتبكة ومن نافذة نصف مفتوحة و من باب مواربٍ على الوجع والحياة ، تلك امرأة لا تحفل كثيراً بالرغيف ، رغم جوعٍ و عوز ، تلك امرأة تريدني أن أكتبَ عن " داليةٍ و عناقيد عنب " !

كأنّما تريدني أن أصوغها و أرى فيها الشبابيك والدروب والفاكهة .

(11)

الانشغال بـــ " الفراطة " !

الأصدقاء ورفاق المدرسة والعمل والجيران وربّما الأقارب، جميعهم ما عادوا يلتقون إلاّ بشكلٍ متقطع و لوقت قصير .

واللقاءات صارت أماكنها واضحة ، إمّا " صيوانات و قاعات عزاء و جنازات " أو عند محال الخضار والمطاعم أو في " ندوات بائسة " يتحدث فيها عشرة منتدين و يحضرها ثمانية متفرّجين .

ويتبادل الصحب المرحبا والسؤال عن الحال والأحوال و جميعهم يردّدون الجملة التي صارت دارجة : " كلّنا هيك " أو " بعين اللّه " !

في أماكن العزاء والمواساة والجنازات ينشغل الأصدقاء بحصّة تقوى مستعجَلة لزوم الخشوع ، بينما وقتهم الأكبر يبذلونه في الحديث عن أشياء كثيرة لا تنفع ومن أبرزها " انتخابات قد تحدث في بلدية المدينة بعد عشر سنوات " .

و يتمتمون لزوم الوقار و يجدون أنفسهم يقولون : " اللهم آمين " ويمسحون على وجوههم ، بعدما كانوا فطنوا إلى أنّ شيخاً أو واعظاً في طرف المكان كان يحثّ الناس على الإيمان والصبر ويدعو للمتوفّى .

و عند محال الخضار والمخابز ، يكتفي الأصدقاء بالتلويح والابتسامات غير الواضحة و كلمة : " طمّني عنك ، سنلتقي " ، و من بعيد .

أمّا في الندوات البائسة ، فيلتقون ويتبادلون " التعبيط والاحتضان " و يجلسون إلى مقاعد متباعدة ، نصفهم ينشغل بجهاز الهاتف و الرسائل التي تدهمه فيه ، ونصفهم الآخر ينشغل بالتثاؤب ، وحين يلمحه المحاضرون أو يلقون القبض عليه متلبساً بالتثاؤب ، يهزّ رأسه ويبتسم في إشارة منه انه " فاهم " و متابع !

..

ما يشدّ الانتباه أن كثيراً من الناس ، في الباصات و بعد الخروج من دور العبادة و بعد مغادرة الدكاكين ، ينشغلون بـــ " الفكّة أو الفراطة " ، تراهم يحصون ويعدّون ما في جيوبهم من فكّة أو فراطة .

المشكلة الكبرى في " الفكّة والفراطة " .

(12)

حكاياتنا !

أنْ تصنعَ من " عربة ركنها صاحبها وغادر المكان " حكاية مكتظة بالصور والمواقف والزوايا والورد ، فذلك أمرٌ يعدّونه "ذروة الإبداع " !

الحكايات المدهشة نصنعها :

من زوايا منسيّة ،

من كرسيّ ظلّ فارغاً على الرصيف لأنّ صاحبه ضاق ذرعاً بالحياة فتوارى ،

من مشهد لامرأة رقّ قلبها فاندلقت ركوتها و طفح البنّ و عمّت الرائحة و اختلط البن بالشوق والفاكهة ،

من نافذة صارت محطة لصحن ماء و يمامة و هديل و أطراف غيم ،

من فتى لم تغب روح فكاهته رغم وجعٍ كثير و فقد ،

من أمّ انتظرت لكي تنضج طبختها ، فنضجت ، ولا تزال الأم تنتظر ولداً تقطعت به السبل ،

من أشياء صغيرة لكنها حادة و مدهشة و مثيرة للقلق .

..

الحكايات المعدّة للروي أو للتمعن أو للكتابة ، لا يصنعها مكتفون بالفرجة وإن كانوا جزءاً من نسيجها ، بل يصنعها ضالعون في الوجد أو الشوق أو التعب أو حتى في الغياب !

كثير من الغائبين يصنعون الحكايات المدهشة و ربما الموحشة ، فغيابهم حضور و صمتهم نشيد صارخ و غناؤهم صعود إلى الجبل !

..

تلك ذروة القصة : الحكايات الناصعة تصعد بنا إلى الجبال لنرانا ، فلا نهرب أو نجفل ، بل نزرع السفوح ما تيسّر من " حبق و ليمون و قمح " ، ثم نصعد !

و هكذا !

الحكايات المدهشة ، قد لا نكتبها ، ولكننا نرسمها في العيون ونراها فينا و نرانا فيها !

دعونا نصعد لكي نرانا ثم نهبط لكي نزرع ليموننا وفاكهة المحبة !

(13)

عن الكلامِ و المدن الجميلة !

منذ أزيد من أربعين سنة ، كانت الكلمة و كان الحرف والورق والحبر قبل الضوء المتحرك و قبل أن يصير الكلام متاحاً في الفضاء والهواء ، منذ أوّل الكتابة قلنا الكثير وكتبنا عن "المطارح العتيقة " و " الحارات العتيقة " و عن الأرصفة والمقاهي والأسواق و " المصاطب و عتبات البيوت " وعن الياسمين و " داليات التعب" وجدرات التعب وعن شجر الليمون في دورنا الصغيرة وعن الشبابيك المفتوحة على الدنيا !

قلنا عن العتبِ والتعبِ ،

قلنا عن "مادبا مدينة الحنطة والحجارة العتيقة " في غير نصّ و غير صحيفة ،

قلنا عن " الدكاكينِ و الشوارع العتيقة القصيرة والأزقّة " ،
قلنا عن المقاهي والحبّ و الحبّ وعن طاولة النرد و ورق الشدّة و مقاهي غرناطة و المحبة ومقهى عمر الغائب الحاضر في الذاكرة والتاريخ ،

قلنا عن الصحف و مربعة أبي الزلف ومكتب نبيل عجيلات ولقاءات الصحب في نهارات المدينة والقهوة من صنع الجميل

نبيل عجيلات والتي بلا سكّر ،

قلنا ولا نزال نقول ، والعناوين لنا والكلام نصنعه من الأمكنة والمطارح التي عشنا فيها و عشقناها ورأيناها و أمطرت السماء فوق رؤوسنا عندها و من الدكاكين التي عرفنا ونعرف أسماء أصحابها وألوان " مطربانات " بضاعتها .

قلنا عن أوّل مسجد في المدينة ، في وسطها في العصر الحديث ،

و قلنا عن كنائس المدينة و مواعيدها الجميلة ،

و قلنا عن أعراس وأفراح مادبا وحتى عن أوقات حزنها ، قلنا كما نعرف وكما شاهدنا ونشاهد ،

و قلنا كلاماً واضحاً ، صار دارجاً ، أنّ في مادبا مياهاً تصلح للوضوء وللتعميد في آنٍ معاً .

..

هل بقي شيء نريد الكتابة عنه ، وهل من سبب يدفعنا إلى التأمّل والكتابة ؟
نعم وأكثر ،
سنظلّ نكتب عن الحبّ كما نراه وعن الحياة كما نريدها وعن الحق كما نسعى إليه وننتظره وعن الحرية !
عن الحريّة التي بها تسمو البلاد وتصعد محلقة طيورها وأناشيدها .

(14)

" السنسلة " !

وإلى كونها كانت تشكل جداراً عازلاً أو ساتراً ، فإنّها كانت صناديق بريد و محطّات توقف و انتظار !

تلك كانت " السنسلة " أو السناسل .

هل تتذكرون كيف كانت الرسائل والهدايا الصغيرة تُدس بين حجارة السنسلة ريثما يحضر من يأخذها ، العاشق أو الصديق أو الصاحب و سواهم ؟

السناسل كانت ملاذاً للأفاعي الصغيرة و كانت " مخازن و مخابيء " مؤقتة و كانت صناديق عناوين ومحطّات اتكاء !

عديدون كانوا يسندون أجسادهم إلى السناسل أو يجلسون في الجوار !

ومنها كانت " كوّات " مفتوحة أو نوافذ صغيرة يطلّ منها من يريد إلى الآخرين او إلى الشارع أو تطلّ منها البنات إلى عناوينهن حين كان للعناوين قيمة و معنى و حضور .

أتحدث عن سنسلة و طين و حجارة هكذا تقام فوق بعضها

من دون اعتناء كبير .

وأتحدّث عن سماء كانت متاحة لكي نراها كلّنا ، من الحوش أو الشباك أو السنسلة أو من شارع لا يضيق على عابريه .

وأتحدث عن أوقات لم تكن المطارح فيها ضيّقة ولا الصدور .

وأتحدث عن وجوهنا الغائبة ، الآن ، في الضجيج و في رسائل "المرحبا" البلاستيكيّة في الحروف التي ينقلها الهواء المعلّب الذي نشتريه على شكل " حزم أنترنت و دقائق اتصال " .

(15)

" رفوف " وسلالم !

الرفوف ، أماكن إيواء و حفظ أدواتنا و دفاترنا وملابسنا وطناجرنا و مؤونتنا .. وكثيراً ما كنّا نركن أشياءنا المؤجلة فوق الرفوف ، و نقول : ضعوا كذا على الرفّ إلى حين حاجة أو لزوم أو ضرورة !

كثير من أدواتنا فوق الرفوف باتت لا تصلح للاستخدام ، و كثير منها فات أوانه ، و كثير منها نسينا أن نستخدمه في وقته المناسب .

أمّا ما بقي صالحاً للاستخدام ، فلا نستطيع تناوله و تداوله لأن الرفوف عالية و سلالمنا مكسورة و قاماتنا أقصر من أن تطال ما يوجد هناك في الرفوف وعليها !

..

نحن لا نتقن لعبة التأجيل ولا لعبة إبقاء الأشياء إلى حين حاجة ولا لعبة استخدام السلالم .. و خسرنا كثيراً من أدواتنا المركونة لأننا اعتقدنا أنّ قاماتنا لن تنخفض و أن الرفوف قريبة .

..

قبل سنوات خبّأتُ طنجرةً فوق الرفّ وكانت تنفع لطبخة صغيرة تكفي لاثنين أو أربعة .. الآن الطنجرة ما عادت تنفع لستة أفراد .

والآن ، تماماً ، لا حاجة بنا لكي نجلب سُلّماً متيناً نتسلّقه إلى الرفّ ،

فلا نريد الطنجرة .

للمناسبة ، الطنجرة فارغة تماماً ، فقط وعاء بأذنين ثنتين لضرورات المسك والحمل ، و غطاء على حجم فم الطنجرة أو فتحتها .

ليس هناك ما نخبّئه ، لا في الرفوف ولا في الطناجر .

..

في بيوتنا العتيقة ، و إن حاول أحد منا الصعود إلى الكوّات العالية أو الرفوف المنسيّة ، هناك قد يجد صاعد السلّم، فوق الرف وفي الكوّة ، قطعة حجر بحريّ مبزّر لغايات تنظيف وكشط تشققات القدمين و تسطحاتهما و قشب الكعبين .

و قد نجد دفتراً رمته صبيّة خشية أن يراه أحد ويقرأ جملة كانت كتبتها حين شوق ،

وقد يجد المرء هناك ، في الرفّ ملامح لوجوه توارت ، واخرى

تراجعت إلى الوراء ، وأخرى اكتفت من الحياة بالصمت ، و قد نجد هناك عُشّاً و مخبأً لطائر صغير .

..

هل سمعتم أن فلاناً بات مركوناً على الرفّ ؟ مثل الطنجرة والحجر و لوح الصابون و مرقاق العجين .

..

في الرفوف ذاكرات قليلة ، وعند الرفوف المنسيّة نرى حقيقتنا و ربّما نرى

قاماتنا التي انحنت بفعل تقلّبات الأحوال .

(16)

الأسواق العتيقة !

أحبّ الأسواق العتيقة ، و المطارح القريبة إليها !

هناك وُلدتُ ،

وهناك حبوت و لثغت و ترعرعت ورأيت صورتي في الشوارع والشبابيك والدكاكين وأرغفة الخبز !

وهناك ، في السوق وعند أطرافه القريبة تمرّنتُ على الحكي من حيث لا أدري ،

وهناك سمعت أصوات الباعة والمركبات والعربات و سمعت للمرة الأولى صوت " الأذان " و صوت " جرس الكنيسة " و عرفتُ أنّ مياه الناس واحدة وهواءهم واحد و سحناتهم لا فرق كبيراً بينها !

وهناك عرفت وأدركت رائحة الورد وألوانه ،

وعرفت كيف تكون المرحبا ،

وعرفت كيف ينصاع الولد إلى أمر أسرته حين يرسلونه إلى

السوق لشراء ضمّة بقدونس ويطلبون إليه أن لا ينشغل بشيء في الطريق !

كنت أتأخر ،

وكنت أنشغل بوجوه الناس وملامحهم و كنت أنشغل بما أسمع من " سواليف و طق حنك وحكي و حوارات و صراخ " في الطريق ، و منها عرفت رائحة الحياة !

..

في السوق العتيقة بالمدينة ، أدركت أحوال الناس ولو من غير وضوح .. و عرفت أوّل الدروب إلى الهواء .

في السوق هناك حيث حبوت ، عرفت أين يذهب الميّتون حين كانت تمرّ الجنازات محمولة إلى أماكن التشييع والصلاة و من ثمّ إلى المقابر !

وعرفت أن الفرح كان ولا يزال ممكناً ، حين كانت مراسم وحفلات الأعراس تجري في الساحات والشوارع .

..

في الأسواق العتيقة ، عرفت أن الكتابة عنها لا تنفع لمن لم يكن اقترب منها أو اشترى أو باع أو لعب أو صلّى هناك .

(17)

صاج فلافل و حكايتي الأولى !

قبل ولادتي بقليل ، قبل بكائي الأوّل بعد مكوث في رحم الوالدة تسعة شهور ، المهمّ قبل انطلاق صرختي الأولى : كان عند الأهل مطعم وهناك معدات للتجهيز ومن أبرزها (صاج فلافل جديد و صوانٍ معدنيّة و بلاستيكيّة لغايات عجن الحمص الخاص بالفلافل بعد طحنه) لم يكونوا استخدموها بعد ، و كانت القابلة القانونيّة في العادة تقوم بتحميم الطفل المولود (غسله و شطفه وتلميعه) ، وكانت القابلة وقتها ، في 30 تشرين الثاني 1956 ، المرحومة لبيبة المطالقة الكرادشة ، و كنا نعيش في حارة واحدة في وسط البلد .

طلبت القابلة وعاءً لجلي الطفل ماجد أو لممارسة طقس "تحميمه" ... لمعت في أذهان المحتفلين فكرة أن يكون وعاء الاستحمام طازجاً أيْ جديداً ، وربما لم يكن عندهم أوعية أخرى!

فربّما جدتي أو واحدة من عمّاتي ، ركضت لتحضر صينيّة جديدة ، كون الست لبيبة طلبت وعاء صغيراً لأني جئت صغير الحجم وربّما أقل من حجم ومساحة نصف ذراع ، كما قالوا لي في السيرة .

صارت واقعة الاستحمام الأول في صينيّة جديدة من الألمنيوم أو المعدن النظيف غير قابل للصدأ أو التلف . أو البلاستيك ، المهم أن الوعاء يسع الطفل ماجد !

الصينيّة تلك كانت ربّما وعاء صغير لعجن الفلافل ، جلبته من المطبخ واحدة من النساء من دون أن تدري ، حيث كنت مولود العائلة الأول في المدينة .
الوعاء كانت فيه بقايا عجينة الفلافل المُعدّ للقلي .

جلبوا (الصينيّة/ الوعاء / الصاج) فرحين ، كان المهمّ أن يشطفوا ماجد ، ولم يتبيّنوا أمر الوعاء

تبيّن في ما بعد أن " وعاء الاستحمام الأول والشطف الأول " كان من أدوات تجهيز الفلافل البلاستيكيّة و كان مخبأ للضرورة وكانوا جلبوه من العاصمة من سوق الأدوات المنزلية في ذاك الزمن لغايات الاستخدام في مطعم العائلة الأول الذي كان في عمارة العم المرحوم عطا الله المنصور الكرادشة (أبو نايل) رحمهما الله ، مقابل كنيسة الروم حالياً ، والوثائق تقول أن عائلتي استأجرت الدكان وجعلتها مطعماً في أوائل خمسينيّات القرن الفارط ، وكانت قبل ذلك تعمل في مطارح متفرقة في المدية والسوق .

شطفوا الولد ماجد في ماء قليلة في وعاء كان للفلافل ثم ربّما جعلوه لتقديم الماء والعلف للدجاج المنزليّ .

كانت الأمكنة طافحة بالفلافل وخبز الفقراء وزيتهم ومائهم ... اليوم تطفح الأمكنةُ بألوان إضافيّة ومتاعب إضافيّة وظنون إضافيّة ولا نجد الفلافل .

هل قلتُ شيئاً عن الأوقات المستباحة والدماء النازفة والأجساد المستباحة والأوطان المستباحة ؟

لم أعمد إلى شيء آخر !

كنت أهجس في أوّل الصحو وأولى الصرخات وقرص فلافلي الجميل والجيران الذين فرحوا لولادتي والمكان الذي بُشّر فيه بي ولداً صبيّاً .

ما أوسع الفكرة والذاكرة ، وما أضيقُ المساحة !

ي آخر الأمر ، سنكتب كثيراً عن المدن الجميلة والجيران والأصدقاء و عن العم المرحوم الشيخ خالد محوّ صديقنا وصديق العائلة ، المؤذن العظيم في ستينيات وسبعينيات القرن الفارط وكذلك عن العم الكبير الحاج عبدالفتاح الحايك رحمه الله ، مثلما سنكتب عن الجار الغالي المرحوم الخوري إسبير الأكبر وابنه كذلك رحمهما الله ، اللذين عشنا بجوارهما سنوات عديدة في الزمن الجميل .

..

في البلاد متّسع كبير للحبّ .

(18)

حكايتي مع " البسكليتات " و أدوات اللعب !

أنا لا أقتني سيارة ، بكافة أنواعها و استخداماتها ، و لا أعرف " السياقة " ولا أتقن شيئاً فيها .

لا أبحث امتلاك ولا فنون قيادة مركبة ولا أراني أتطلع إلى ذلك في ما بقي من العمر .

عاصرت مادبا وشوارعها منذ لم تكن فيها أكثر من خمس سيارات بين الخاصة والعموميّة والآن المدينة لا تفرغ شوارعها من المركبات و ربّما صار لكل مواطن فيها سيارة تقريباً أو أكثر .
المشي يقرّب أبواب الحكمة ويجعلنا نتفرّس في الوجوه والملامح ونحفظها في الذاكرة ، والتنقل بالمشي يعزّز من قيم التحايا والمرحبا والتعارف والتوقف الجميل هنا وهناك للسؤال عن الحال والاطمئنان عن الآخرين .

لا أتقن الكتابة عن المركبات والحافلات بشكل واسع ، وذلك لقلّة اتصالي بها أو لقلّة خبرتي وتعاملي معها ، فحين أختار باصاً أو مركبة للسفر أو للتنقل فذلك يقع في باب الضرورة ، والضرورة لا تحضر في هذا الجانب دائماً .. ضرورة متقطعة أو

متباعدة الحدوث .

...

لا أعلم لماذا لم أكتب كثيراً أو بشكل مفصّل عن أدوات اللهو واللعب في طفولتي !

لم أكتب ، مثلاً عن " الفطبول " أو كرة القدم المستديرة، و لم أكتب عن " البسكليت " أو الدراجة الهوائيّة ، لا تلك التي تسير بثلاثة دواليب (ثلاث عجلات) ولا تلك التي للشباب والكبار !

كلّ ما في الأمر أنني لم يكن عندي ولو مرة واحدة " كرة قدم أو فطبول " ، سوى كرة بلاستيكية سرعان ما فقدتها أو تمزقّت و كنت وقتذاك في السنة الثانية عشرة من عمري .
أمّا البسكليت أو الدراجة الهوائيّة ، فلا أتذكّر أنني اقتنيتها أو أن أحداً جلبها لي أو أهداني إيّاها ، و أتذكّر أنني بدأت أتعلّم ركوب الدراجة الهوائيّة ذات العجلتين ، سنة 1970 من القرن الفائت و كنت بلغت نحو 14 عاما من عمري .

ركبت الدراجة الهوائيّة مرّتين وحسب ، وكنت متدرباً ، و عرف والدي رحمه الله بالأمر ، ونلت ما نلت من التوبيخ و " البهدلة " و أكثر .

أمّا حكايتي الأبرز مع " البسكليت "، فتلك كانت سنة 1967، كان عمّي المرحوم صادق من هواة ركوب و استخدام الدراجات

وكان عنده دراجة هوائيّة يركنها في المطعم ويستخدمها كلّما عنّ في باله أن يمرّن ساقيه وقدميه و ذراعيه .. وفي حزيران 1967 كان الشارع فارغاً من المارة ومن المركبات التي كان عددها لا يزيد عن أصابع اليدين في مادبا .. والشارع المقصود يمتد ويتفرّع في اتجاهات عديدة و مركزه ساحة البلدية أو الساحة المجاورة لكنيسة الروم أو ساحة موقف باصات (مادبا _ عمان) أو ساحة استراحة مادبا السياحية (مكان فندق مادبا إن حالياً) .. كانت ساحة يتفرّع عنها شوارع عديدة و لها أسماء كثيرة و الآن اسمها في المدينة " ساحة السلام " !

ترك عمّي صادق المطعم ، و لم يكن الصخب أشغل زوايا المدينة بعد ولا حركة المركبات أربكتها ، و امتطى دراجته الهوائيّة المميزة بلونها و دهانها و عجلاتها و " شراشيبها " ، وأخذ يتحرك في الساحة و يلعب بمتعة و طمأنينة .

ناداني للركوب معه و لتجربة التحمّل أثناء سرعة القيادة وأداء الحركات التي يعرفها " البسكليتيّون " .

ركبت على كرسيّ صغير وراء السائق ، وراء عمّي و مسكت به بشدّة من جنبيه .

و أخذ يجري ويسوق ويتحرك .

و أنا لم أشعر بشيء سوى أن دماً ينزف من أصبع قدمي ، و بدا أنّ صندل البلاستيك لم يقوَ على تحمّل حركة أسلاك العجل الدائرية ، فتقطّع و أكلت الأسلاك أصبعي .

حملت نصف الأصبع المقطوعة بيدي ولا ألم أصابني ، ربّما من سخونة الضربة ، و أخذوني إلى طبيب عام في المدينة و أتذكّر أنه خاط الجزء الثابت من الأصبع (بلا تخدير) و ألقى الجزء المقطوع من أصبعي في سلة القمامة تحت سرير غرفة المعالجة.

...

للآن ، توجعني الأصبع المقطوعة كلّما اصطدمت بشيء صلب أو بحافة .

...

الحكاية لا يزال مشهدها في البال ، وأتذكّر أن الطبيب أخبر الشرطة في حينه ، فأخذوا عمّي بصفته متسبباً في قطع الأصبع .

ذهبت مع والدي في اليوم التالي إلى المحكمة وكانت في دار السرايا بمادبا و قلت للقاضي في حينه أنني لا أريد تقديم شكوى بحقّ عمّي و أريد أن يخرج من " الحبس " ، هكذا كنا نقولها ونحن في ذاك الزمن .

...

الرحمة لروح العمّ الغالي صادق (يوسف) وكان أجمل الشباب وأحبّهم إلى قلبي

.. و لمناسبة هذا الاسترجاع : الغالي العم صادق توفّي على

دراجته الناريّة أثناء سفره إلى الزرقاء بعد تعرضه لحادثة دهس في منطقة شنلر في 9 آذار 1978 وكان اقترب من السنة التاسعة والعشرين من عمره .

...

وللمناسبة ، أحبّ شوارع المدينة الآن إلى قلبي وذاكرتي ، شارع رائع يقطنه مئات و أكثر من أخوتنا أبناء مصر الكنانة ، و نطلق على الشارع اسم " شارع البسكليتات " .. فيه مقاهٍ عديدة و منازل عتيقة و صخب جميل و حياة .

في مادبا شارع للسمكرة والبسكليتات ، وشارع للسياحة و شارع اسمه طلوع العجة و آخر اسمه " شارع العشّاق " !

و عن شارع العشاق كتب عديدون ، لكنّ أحداً لم يسرد أسرار حكايات الشارع و تجلّياته و فاكهة وقت ما بعد العصر .

(19)

في المناديل !

(هذا نصّ للقراءة و يمكن مشاركته و مفرداته ملكي الشخصي و حقوق المفردات التي فيه محفوظة !) .

والمناديلُ المعلّقةُ على " الحيطان " و حجارة البيوتِ و أغصان الشجر ، أو تلك التي تلامس الشبابيك ، كلّها مناديل شوقٍ ، فلا تعبثوا بها !

اتركوها تأخذ حصّتها من الهواء والشمس و من رسائل اليمام ،

اتركوها ترمي سيرتها للشجر و للعصافير و للشمس ، اتركوها تستعد لرحلة شوقٍ مقبلة أو لاستراحة من تعب !

..

المناديلُ هذه وتلك فيها روائح وحكايات الجدّات والأمّهات ، وفيها إنْ شئتم سيرة الحبيبات والعاشقات اللواتي طيّرن أشواقهنّ في البرّ والفضاء وأوراق الشجر !

في المناديل ،
في ألوانها ،
في خيوطها ،
في أطرافها ،
في خلاصة مائها و هوائها :
في المناديل وَجْدُ الحبيباتِ المنتَظِرات و أشواقهنّ !

(20)

على بلد المحبوب ودّيني !

أحبّ أن أسترجع " أغنيات الزمن الجميل " ، ومن بين أبرز ما يدهشني ويشجيني أغنية رائعة لسيّدة الغناء العربيّ ، سيّدة الشدو حين كان الشرقُ جميلاً ، لأمّ كلثوم :
" على بلد المحبوب ودّيني ، زاد وجدي والبعد كاويني " !

إلى آخر الكلام المدهش الذي يتحدث عن الخليل (الصديق / العشيق ربّما / النديم) و عن مصر والنيل والبلاد التي لنا كلّها من أوّل الماء والدنيا إلى آخر الماء والدنيا !

المحبوب والخليل ، في رائعة أم كلثوم ، يعني المعشوق والحبيب .. وقد يعني كذلك الصديق الذي لا نحبّ مفارقته أو أحد الأقارب الذين سافروا ورحلوا منذ زمن أو الذين لن نراهم بسبب المفارقة النهائيّة أو الغائبين ولا نعرف مكانهم .

والمحبوب والخليل ، قد يعني البلاد البعيدة والمياه البعيدة وقد تعني مسجداً غاب صوت الأذان فيه أو كنيسة غابت أصوات أجراس صلاتها ، بسببٍ من قهرٍ أو قمعٍ أو احتلالٍ أو خوفٍ !

والمحبوب وبلده ، قد يعني في الغناء ، بحراً وشجرةً و طائراً

محلّقاً و سماءً صافية من غير هواء ملتاث و من غير صراخ وفزع وخوف !

المحبوب ، وهنا أكثر ما في الامر قهراً وصعوبة ، قد يعني عاشقاً لا حيلة له / أو عاشقة فقدت أصابعها ولم تعد قادرة على الرسم .

..

" على بلد المحبوب " أغنية رقيقة من زمن الفنّ النبيل ، والمحبوب فيها يعني أو قد يعني ، تعباً أو جوىً أو أنّ في البلاد " طائراً فقد مقدرته على التحليق " !!

.. ما أصعبها ، حين يفقد طائرٌ قدرته على التحليق !

(21)

سروال داخليّ و كمشة أحاسيس و سيرة !

تخطرُ في البال ، وعند مفترقات و أحوال عديدة صادمة أو موجعة أو مقلقة ، فكرة على شكلٍ وصفةٍ يمكن ترويجها أو التعامل معها في الحالات المشابهة !

__ هل يمكن ، مثلاً ، شراء كميّة من الرز لغايات الطبخ ، لقاء ضحكة أو مجموعة ابتسامات ، كأنّ أبتهج في وجه البائع فيمحضني بالمقابل ما يكفي من الرز لـــ طبخة مقلوبة ؟.

__ هل يمكن ، مثلاً ، الحصول على ربطة خبز وما يلزم من خضار و مساحيق جلي وغسيل و شامبوهات و معجون أسنان و فرشاة لأسنان مهترئة ، مقابل كمشة من السيرة الذاتية أو أن أناول التاجر شهادتي حسن سيرة وسلوك اجتماعيّين فيمنحني المواد اللازمة ؟

__ هل يمكن ، مثلاً ، أن أناول البائع كميّة من " طيبة قلبي" ، فيعطيني لقاء ذلك زوجين من الملابس الداخليّة تنفعان في سدّ حاجتي إلى ذلك ؟

__ هل يمكن ، وعلى سبيل المثال ، أن أذهب إلى صيدليّة ،

وأتحدث لصاحبها و من يكون عنده عن " أدب الحوار و حوار الأدب " و أقرأ لهم قصتين قصيرتين و قصيدة ومقطعاً من رواية ، وبعدها يناولي ما يلزم من علاج للضغط و الأعصاب لقاء ما قدّمته ؟

__ هل يمكن ، و كـــ مثال وحسب ، أن أقدّم كيساً محمولاً باليدين ، يحتوي على مشاعر إنسانية و عواطف و أحاسيس تنفع للمتعبين والمكلومين والفقراء والمساكين و لمن أصابتهم مصيبة ، و أناوله لـــ " محصّل فواتير / جابي " شركة الكهرباء أو الماء ، فيعفيني من تسديد فاتورة باهظة أو يمنحني خصماً معقولاً لقاء مشاعري التي دسستها في قميصه أو شواله ؟

__ هل يمكن ، مثلاً ، أن أشتري " عود تنظيف أسنان " مقابل أن أمنح البائع دفتر مذكرات عن رجلٍ عتيق كان يسعى في المدينة ؟

__ و هل يمكن ، أن أجمع (الضحكات والوجه المبتهج و السيرة الذاتية وشهادات حسن السلوك و طيبة القلب و القصص والقصائد والرواية و محاضرات عن أدب الحوار و حوار الأدب و كميّات الأحاسيس والمشاعر النبيلة و دفتر المذكرات) ، و أشتري بها سروالاً داخليّاً من منشأ صينيّ أو مصنوعاً محليّاً .؟

.. الباعة ، ومن دون مواربة ، لا يملأ عقولهم أو أذهانهم سوى ما يملأ جيوبهم .

(22)

و البنّ لا يفقد روحه !

أنْ تكتبَ ، ذلك يعني أن تخلقَ روحاً في المفردة و حياة في الكلام !

في كلّ مرة تكتبُ سطراً ، تستطيع أن تضع حجراً للصعود إلى الحكاية أو تفتح باباً في الطريق إلى الحريّة .

أنْ تكتبَ ، فالأمر يخلّصك من " ترهّلِ طاريء " ، قد يصيب ذهنك كما يحدث لكثير من المتفرجين .

أنْ تكتب ، فالأمر يرفع " منسوب الأكسجين " في رئتيك و تغدو صالحاً أكثر من ذي قبل لكي تتنفس !

أن تكتبَ ، فالأمر يعني أنّك تقدم سؤالاً عن الحياة أو تجترح إجابة عن سؤال ، وفي الحالين أنت تبعث الدم في عروق الموقف !

أن تكتبَ ، فالأمر يعني أنّ " الحياةَ ممكنةٌ " وأنّ الوقت لا يزال عصيّاً على الفناء !

و أن ،

ثمّ أن ،

وأن تكتبَ فالأمر يجعل صوت الذي (أنّ) مسموعاً وإن شابه اختناق !

..

و حين تجد قارئاً ، مجرّد قاريء واحد في الأقلّ ، تكون انتصرت على الفراغ وانتصرَ حرفك للدهشة !

الحرف الباذخ في جماله ورقّته و نصاعته ، لا يعني أن تتزوّق المفردة وحسب .. بل يعني أن يصادف الحرف :

بهجة هنا ،
دهشة هنا ،
بقيّة حزن هنا ،
قرنفلة تكاد أن تذوي هنا ،
سخطاً هنا ،
وجعاً هنا ،
صمتاً هنا ،
صراخاً هنا ..

ثمّ يصنع الوقت توليفة من كلّ الذي أنجزه الحرف هنا ، ويعجن البهجة والدهشة و الحزن و القرنفلة و السخط والوجع والصمت والصراخ و ماء الجوار العذب و هديل اليمام ، فيجرج ما يشبه الحبّ !

أقُلتُ الحبّ ،
نعم يخرج الفرح ناصعاً من غير سوء و يفرح المغنّون و لا يغادر الناس كؤوس شايهم .

بالكتابةِ يغلي البنّ و قد يحترق .. لكنه لا يفقد روحه وطعمه!

(23)

مقهى غرناطة والانتخابات !

في " مقهى غرناطة " التي كانت عند دوّار البلديّة بوسط مادبا ، قبل أن يغادرها أصحابها و تغدو مشغلاً للحلويات ، وحتى أواخر تسعينيّات القرن الفارط ، كنا نلتقي هناك !

نلتقي ونجتمع ونلعب الورق والنرد ونشرب ما تيسّر وما توافر وما يلذ لنا ويطيب ، وكنا نحكي !

كان الحكي كثيراً ،
كان الحكي عن الهواء والهوى ،
عن الشوارع والأصدقاء والماء والرغيف ،
عن المرض والتعب والوقت الضائع والفقد ،
عن العلاقات البينيّة و تفرّعاتها ،
وكنا نحكي عن " الحصص " !

وفي الحصص كلام كثير لأنّ للحب حصصاً و للأسماء وللشوارع وللأماكن و للماء و للحظّ .

..

كنّا نتحدث عن المواسم و حصادها ، وبخاصة " موسم

التبويس الاجتماعي " ، موسم الانتخابات !

و حين يرتفع المزاج الفكه لأحدنا يتخيّل نفسه مترشحاً للانتخابات ، فيسأل : هل لي فرصة في النجاح والفوز ؟

يردّ من طرف عند الطاولة أو عند طاولة مجاورة ، أحد لاعبي النرد ويقول : كم لديك من الأصوات في صندوق علاقاتك وجهدك ومواقفك ؟

..

المهمّ أن التندر يبلغ هناك مبلغه ، فيبدأ أحد صانعي الفكاهة الانتخابية بالقول : تعالوا نحسبها .

ثم يبدأ بالسرد و توزيع الأرقام وحصرها ويقول " ييجيك (يأتي لك) من عند عشيرة كذا ألف صوت ومن عائلة كذا مائتا صوت وكذا وكذا .

و ينسجم الفكاهيّ مع فكاهته ودوره ويقول ويأتيك من عند آل شاهين مائة وخمسون صوتاً .

فأنهضُ فزعاً و أصرخ في وجهه : يا عمّي كل دار شاهين بالمدينة أصواتهم لا تزيد عن خمسين صوتاً ، فمن أين ستجيء المائة وخمسون صوتاً ؟

..

نضحك ،

ونقول : هكذا كنا نلعب الانتخابات !

والأمر اللافت أنّ صديقنا في المقهى ، حالفه الوقت والحظّ و كسب الانتخابات .

ملاحظة : المقهى أسست في العام 1979 وأغلقت في أواخر القرن الفائت

(24)

طاولة النرد ،

و لعبة الحكايات والزمن الجميل !

رغم أنّي لعبت ورق الشدّة سنوات طويلة و صرخت في الغلبة وصرخت في الهزيمة ، لكن " طاولة الزهر " كانت حصّتي في المقهى !

تحرّكت حجارة النرد بين أصابعي آلاف المرات ، مثلما تحركت حجارة الطاولة .. و لعبت ندّاً لعديد اللاعبين ، منهم من غادر الدنيا و ترك خلفه ذاكرة و حكايات و قصصاً ومنهم الكثيرون الذين ما زالوا يجوبون البلاد أو اكتفوا بالوحدة والعزلة .

كنّا نتحلّق عند طاولة الزهر ، و كثيراً ما كان اللاعبان لا يفعلان شيئاً سوى نقل الحجارة من خانة إلى أخرى ، فيما كانت قرارات النقل والحركة تخضع لآراء واجتهادات وتنافس المحيطين، وكانوا ، ينقسمون إلى فريقين في الأغلب الاعمّ .. فريق لهذا اللاعب وفريق للاّعب المنافس / الخصم !

..

كانت طاولة الزهر في المقاهي الشعبيّة و بخاصة في شارع البسكليتات ، عند ثامر أو عادل أو عند أبي محمود ، تثير الجلبة والفوضى و لكنها تصنع أجواء فرحٍ و حبور و تنافس و أحياناً تخلق حالة من الغضب .

وكنت من أكثر الغاضبين عند الخسارة ، رغم أنني أتمتّع بروح رياضيّة عالية ، ولكن !

..

الشاي والقهوة واليانسون والحلبة و الكركديه و الأراجيل والسجائر ... كانت حاضرة ولم تنقطع في فترات اللعب أو الفرجة !

في الصيف كان الرصيف ملعبنا ،

و في الشتاء كانت الأماكن المغلقة تضمّنا !

..

وفي قعر فناجين القهوة وكاسات الشاي ، كنّا نقرأ ملامحنا و أوقاتنا و أحوالنا و نتبادل النكات و الضحك و ربما الدموع !

هل ينفع أن نتبادل الدموع ؟

ربّما ، فشراكة الدمع تجعلنا أكثر قرباً من جوّانيّاتنا و مشاعرنا

.

..

وفي مساحة طاولة الزهر المفتوحة كان تظهر خارطة وخريطة يوميّاتنا ، فالحجارة تتحرك والنرد يتقلّب والأصابع تتفنّن في صنع الحظّ إن استطاعت !

حجارة النرد تجيء بالحظّ وكنا نحاول أن نلعب في المشهد

الذي تجلبه الحجارة .

نلعب ونتحاور في داخل رقعة الحظّ !

..

للخاسر أسبابه التي يسوقها و يرجعها إلى ارتباك النرد و جلبة الحاضرين و انحيازاتهم .

و للرابح نشوة الانتصار التي يرجعها في الأغلب الأعم إلى مقدرته الفائقة في اللّعب !

هكذا . نرمي أسباب الخسارة إلى آخرين أو إلى أحوال خارجة عن إرادتنا . و نزعم أننا نربح لأننا امتلكنا أدوات الربح من دون مشاركة الآخرين !

..

لعبة طاولة الزهر . أو لعبة النرد . فيها حكايات كثيرة تنفع للروي وتنفع للتأمّل وتنفع للانتظار .

..

كنت لعبت مع راحلين . و تبادلنا الهزائم مثلما تبادلنا الانتصارات ... و منهم أساتذة و وجهاء و أصدقاء فقراء مثلي و عاديّون و منهم الراحلون : العم زكي ثلجي حداد والأخ طلال ضابان (العساف) و الصديق سعود أبو لمظي و غيرهم .. ولعبت مع آخرين ما يزالون على قيد النبض والحياة والمشاكسة و منهم أحمد الشوابكة و وليم حداد و شقيقه جهاد المشاغب و أخوة من مصر العروبة (العربي و سيّد حلب و غيرهما) .

و المقاهي تعددت وتنوّعت . من مقهى عمر إلى مقهى غرناطة إلى مقهى المحبة إلى مقاهي شارع البسكليتات و أرصفة أخرى عديدة كانت تحتمل شغبنا و تحتفي بنا .

وتبادلنا النكات مع عشرات من اللاعبين والمتفرّجين .

والاسترجاع هنا عن أحداث رافقت طاولة الزهر والمقاهي منذ عام 1978 و حتى الشهر قبل الأخير من العام 2011 .

..

كنّا نصنع الحكاية والنكتة الطازَجة .

و كنّا نتندّر و نلاحق المهزوم حتى آخر الليل .

وكانت لنا الأوقات والأرصفة و أباريق الشاي والسجائر والأراجيل و المواويل .

..

في الهزيمة كنّا نغنّي بملء أصواتنا .

وفي الغلبة والفوز كنّا نغنّي و نخرج إلى الشارع لنرى انتصاراتنا في وجوه العابرين .

إنها لعبة الحكايات أو حكايات اللعبة .

..

كنا نلعب وكان شايُنا معافىً وخبزنا لا يتوجّع .

(25)

راديو الصندوق !

حتى سنة 1970، وربّما بعد ذلك ، لم يكن عندنا " جهاز تلفزيون" وكان التلفزيون في حينه لا يُعدّ أولوية او ضرورة في رأي الوالد رحمه الله .

أتذكر الآن اننا كنّا في أوقات متفرقة نذهب ، نحن الصبية ولم يكن صبيّاً في العائلة سواي فجميع الأطفال كانوا في مرحلة الحبو وأقلّ ، إلى دار عمي صالح رحمه الله والتي لا تبعد أكثر من خمس دقائق سيراً على الأقدام ، لمشاهدة مسلسل بدويّ جميل كانت تبثه شاشتنا الرائعة آنذاك .

كان " التلفزيون الأردني " في حينه مبهجاً وراقياً رغم أنه بالأبيض والأسود .

لم يكن في المدينة ، مادبا ، مركبات عامة (سيارات نقل) تزيد في عددها عن أصابع اليد الواحدة .

..

كنت بين وقت وآخر أتذوّق النغم الجميل والكلمة الراقية من خلال " الراديو " ، ولا انسى راديو الصندوق الكبير .
استمعت إلى " أم كلثوم و مجايليها " ، في الزمن الجميل ، من خلال راديو الصندوق ، وكانت محال تجارية تقتنيه و كان المقهى

الأشهر في المدينة في حينه يقتنيه ، كان مقهى عمر .. هدموه ولم يعد قائماً سوى في الذاكرة الجميلة .

كنت أذهب باتجاه السوق في مادبا ، صبياً صغيراً ، في أواخر ستينيّات القرن الفارط ، فأسمع في أوقات متباعدة " غناء شجيّاً " في الراديو عند محال القماش و الـ " المكوى " الذي كان يملكه سمعان السرياني .

و كان ثمّة مذياع أو راديو صندوق عند حنّا زاده ، بائع البن الأشهر و كان يحمّص البزر الطيب عنده .. وكان راديو صندوق في محل قماش في السوق لأحد الأقارب و في المقهى و عند محال الخضار المعروفة .

..

في الصندوق هناك ، كانت ذاكراتنا وكانت أغنيات الزمن الجميل و كانت الأخبار و كانت البلاد بلاداً لنا كلنا .
سمعت من خلال الصندوق و عرفت أم كلثوم و توفيق النمري و أحمد سعيد والسمك الذي لم يتجوّع في بحر أو حتى في مجرى سيل .

عرفنا أسماء عديدة .

...

رغم وهم كثير كان حاضراً ورغم خسارات كبرى واضحة ، ورغم الكثير من الصراخ المقيت ، كانت الأيام مُستطابة والغناء كان واضحاً و فاتناً و كانت المطارح قريبة .
من يعيد إلينا مطارحنا ؟
من يعيد إلينا صناديقنا ؟

(26)

الرسّام غادر المكان !

في شارعٍ يتّسعُ كلما ضاقَ ، ركنَ ماسحُ أحذية صندوقه الخشبيّ و لوازمه و كرسيّه الصغير إلى طرف رصيف ، و راح يتأمّل لوحةً كان رسمها متسكّعٌ و علّقها إلى جدار مهتريء قريباً من باب المقهى الوحيد في الشارع .

ماسح الأحذية اكتفى بالألوان في اللوحة مثلما يكتفي هو بلونٍ واحد يمسح به الأحذية .

و بائع " غزل البنات " كان يلتهم " ساندويشته " و يكرع معها شايه ويؤشّر إلى " نادل المقهى " أن يأتيه بكأسٍ كبيرة أخرى من الشاي .

والنادل منشغلٌ بشاعرٍ يقول كلاماً غامضاً ، بينما المستمعون الحاضرون توقفوا عن لعبتي النرد والورق وأصاخوا السمع إلى " الشعر المتلعثم " في فم الشاعر .

وبائع الجوارب الجائل يقطع على الصامتين صمتهم ويوقف الشاعر عن الكلام حين ينادي في الناس أن : " خمسة أزواج جوارب بدينار " ، فيفاوضه أحدهم ويشتريها بنصف دينار ، فيجلس بائع الجوارب بعد ذلك و يطلب شاياً و يتأمّل في الحاضرين الذين

يسمعون الشعر .. بعد قليل ينهض ويتجه إلى " اللوحة " و لا يعجبه اللون الرماديّ فيها !

الرسام غادر المكان ، ولم يعرف أن بائعاً جائلاً استاء من لونه الرماديّ .

وماسح الأحذية اكتفى بحذاء عتيق ، مسحه و لم يأخذ أجره ، كأنما أشفق على حال صاحبه .

أمّا بائع " شعر البنات " و غزلها ، فحاول أن يوزّع " الحلوى " بلا ثمن وبالمجّان ، فلم يجد أحداً يستطيبها .

غادروا جميعاً .

إلاّ النادل ظلّ إلى جوار ركوة البنّ ، لكيلا تندلق .

وأنا كنت انتظر قهوتي من يد النادل !

سمعته يتمتم ، كأنما كان يسبّ أو يلعن أو يهجو .
الشارع يمور و يفيض بالناس .

لكنّ الشاعر رحلَ والرسام رحل وماسح الأحذية رحل و بائع " غزل البنات " رحل .

هل ينفع شارع من دون شاعره ورسّامه و ماسح أحذية العابرين والجالسين و من دون بائع الترمس وشعر البنات ولاعبو

النرد والورق والضاحكون الذين يصعدون بضحكهم إلى ما يقترب من الجلجلة ؟

..

في الشوارع الآن : صخب كثيرٌ و بيعٌ .. لكنّ الضحك يغيب والتأمّل يغيب و البهجة تغيب !

في الشوارع الآن غموض كبير و فوضى ، لكنّ الأصابع الواضحة تغيب .

..

في الشوارع الآن ، يكثر الصارخون ، ويقلّ المغنّون !

(27)

رتق الملابس و سرفيس اللويبدة و أحمد !

في السنوات التي عملت فيها سكرتيراً للتحرير و كاتباً ومحرّراً في مجلة راما الشهرية لصاحبها المرحوم الصديق نادر عجيلات ، و قبل أن تتوقف المجلة بسبب مرض ورحيل صاحبها، وبالتحديد في العام 2004 ، رافقني الصديق الصحافيّ أحمد الشوابكة في جولة صحافية خفيفة إلى قاع المدينة في العاصمة عمّان ، تحديداً إلى منطقة مطعم هاشم و سرفيس اللويبدة ومحلات عصائر وهريسة وسحلب الماردينى ،

وهناك في أول طريق السرفيس المؤدي إلى طلعة اللويبدة وطلعة سينما الخيام ، جلسنا إلى كرسيّين صغيرين عند محال الرثي الفنّي (رتق الملابس والخرق والمزق فيها بطريقة فنيّة) .

في أوّل الأمر ، رفض أصحاب الكار (أهل مهنة الرثي) التعاون معنا في مشروع الحوار ، ولكنهم استوعبوا أننا نريد أن يتعرف الناس إلى المهنة و طرائفها و أهمّيتها ، فكان أن طلبوا لنا شاياً ورحنا في حديث وحوار طريف مهمّ تناول جوانب عديدة من سلوكات الناس و تحدثنا كثيراً عن " الملابس الفاخرة " التي يأتي بها أصحابها أو من يعمل عندهم لكي يجري رتقها أو رفوها أو رثيها .

واستمعنا إلى كثير من أسرار المهنة و عرفنا الكثير من صعوبات يلقاها العاملون في الصنعة !
لم يكن معي ورق للكتابة .

عدت إلى مادبا رفقة أحمد و لملمت نثار ما علق في الذاكرة وصنعت تقريراً صحافيّاً مميزاً عن المهنة في حينه .

..

فقط اكتفينا هناك بالصور .

..

قال لنا الراتق أنه رتق العديد من ملايس لشخصيّات مختلفة رسميّة وشعبيّة وفي مستويات متفاوتة .

..

حين ودّعنا الخائطين هناك ، سألني أحدهم : هل بقي لديكم أسئلة لم تسمعوا إجابات عنها ؟
قلت : لا ، ولكن عندي سؤال أعدّه الأبرز في الحكاية !
و حين كانت يده تشدّ يدي باهتمام و محبة في السلام الأخير ، قلت للراتق : بالخيط والإبرة و الجهد العقلي تستطيعون رتق الملابس و رثيها و إعادتها إلى ما كانت عليه ، لكن هل من سبيل إلى رتق الأذهان أو رتق اللسان ؟

..

ضحكنا جميعاً و قفلنا ، أحمد و أنا ، راجعين إلى جهة تروح بنا إلى باصات العبدلي لكي نعود إلى دوار البلدية في مادبا وهناك نبدأ حكاية اخرى .
الآن ، وقريباً ربّما ، سأبحث عن فرصة لكي أختلف إلى " الراتق " الجميل و صحبه هناك ، وأسألهم جميعاً : هل اتّسع الخرق على الراتق ؟

(28)

" طبّـاخ رُوحُـه " !!

لا تزال عالقة في البال وربّما لا تزال رائحتها في الصدر وطعمها في اللسان "أطباق الزمن الجميل" لا بهرجة فيها ولا إسراف ولا بذخ إضافيّاً .. كنّا نأكل ونشبع و تقتنع منّا العين قبل البطن وكانت الموائد التي دائماً نقترب منها ونتجمّع حولها وعلى " ما تيسّر " ! أنا أتحدث عن جيلي ولا أريد إعادة نبش ذاكرة ما قبلي، وجيلي في طفولته كان منذ أواخر خمسينيّات القرن المنصرم وحتى أواخر ستّينيّاته .

الموائد تلك ، لم تعد حاضرة في أغلبها ولكنها حفرت عميقاً في البال و الذاكرة، لا تزال تشغل وتحتلّ زوايا مهمّة من الاسترجاعات ، إمّا لأن لنا حكايات معها أو لأننا لا نزال نشتهيها، طعماً ولوناً ورائحةً و صحبة جيران ومائدة تتميّز بطاولة أرضيّة مستديرة نتحلّق حولها و تصير فضاءنا حين نجوع ! " رز و بندورة " وخبز .. هكذا كنّا نغمس الرز بالخبز .. "رقاق و عدس" (عجين وعدس) وكانوا يغمسونها بالخبز ، أما أنا فكرهتها وكنت لا أحتمل تناولها بالمرّة .. " فاصولياء ناشفة بيضاء " بلحمة نادراً و بدون لحمة دائماً .. " كوسا خرط" تُغمّس بالخبز دون الرز في حينه .. "عدس ومجدرة" بتلاوينهما .. " مفركة بطاطا وبيض" في سحور رمضان وكانت وجبة دائمة .. "جبنة وبطيخ وخبز" في السحور وغيره .. " رز بحليب " و هيطليّة "

ومهلبيّة " وكانت صناعات بيتيّة تعدّ حلويات شعبية و كنا نتناول الرز بحليب بالخبز أحياناً كثيرة .. " قلاية بيض وبندورة " أكثر من مرة في الأسبوع الواحد .. " النواشف " و ما أدراكم ما النواشف ، وتتضمن المقالي و الحمص والفول والفلافل !.

كثير لم أسجّله ، واكتفيت بزاوية ضيّقة في البال .

أعرف أنكم ستقولون : والوجبة الرئيسة يوم الجمعة مثلاً ؟

كانت تتضمن دجاجاً ، إمّا " مقلوبة " أو صينيّة .. و إمّا "نتمنسف " ! ...

كنت أشرتُ في كتابي " حيطان التعب " إلى قصة طريفة وقعت في بداية سبعينيّات القرن المنصرم ، وكنت فتى لم أتجاوز الخامسة عشرة .. كان وقتها عيد الأضحى ، كنت نائماً مثل العادة و كان والدي ، رحمه الله ، انتهى من ذبح أضحيته .. ناداني بصوت صارخ وطلب مني أن أنهض للذهاب إلى السوق .. و قال: انهض لكي تشتري لنا " معلاقاً " حتى نتناوله إفطاراً لنا ! لا أدري ما الذي حدث.

أتذكر وحسب أنني قلت بصوت مرتفع : ألا يوجد (معلاق) في خاروفكم هذا؟ نهرني والدي بشدّة و قال: هذا المعلاق سنوزعه مع الأضحية، قم يا ولد لكي تشتري لنا واحداً من عند عمك أبو فتحي . ثم سمعت و رأيت والدي يضحك من قلبه .

...

صار لازماً أن نسمّي الأشياء كما كانت ، بدنا طبخة " كوسا

خرط " ... قال أهل الشام يطلقون عليها اسم " طبّاخ روحه " !

ولمناسبة استذكار الكوسا خرط و الحكايات حولها ، كنت تزوجت في منتصف ثمانينيّات القرن المنصرم و كان والدي رحمه الله كثيراً ما يختلف إلينا و يزورنا وبخاصة في فترة ما بعد الظهر بقليل عند رجوعه من السوق إلى داره ، كنا نسكن ولا نزال مستأجراً يقع في الطريق إلى السوق التجاريّ و قريب من الحركة العامة لأهل المنطقة .

في واحد من زياراته التي لن ننساها ، كنا لتوّنا نجهز المائدة لتناول طعام الغداء ، فقلنا للوالد الطيب : اليوم عندنا طبخة فاخرة ، نريدك أن تشاركنا " بركة تناولها " بمعيّتك .. فسأل الراحل : ما طبختكم اليوم ؟ قلنا له : طابخين أكلة شاميّة فاخرة اسمها " طباخ روحه " . بذلنا محاولاتنا وكان ذلك في تسعينيّات القرن الفائت، فوافق الراحل الطيب على أن يجلس ولكنه لا يشعر بالجوع .

جلس لحين إعداد المائدة . صارت المائدة أمامنا و تحلقنا حولها على الأرض كما يحب هو ونحب نحن، وقلنا له : " تفضل يا حاج".

نظر إلى الطنجرة قبل وضع الطبيخ في الصحون و بدأنا برفع الطعام من الطنجرة بالمغرفة ووضع ما نحتاج منه في الصحون . رأى والدي الكوسا خرط ظاهرة رغم وجود مواد أخرى مضافة ومن بينها اللحم ، لكن الكوسا كانت العنوان الأساس في الخليط .

أنا كنت أضع يدي على فمي خشية أن تنفجر مني ضحكة مجلجلة ، لأني كنت منتظراً ومتوقعاً ردّة فعله .

هز رأسه و شتم ضاحكاً و قال : يا أولاد شو عيبها لما نسمّيها كوسا خرط . ضحكنا جميعاً حتى انقلبنا على ظهورنا . و كنت منذ دعوناه للغداء توقعت أن نضحك و يصيبنا الكثير من تعليقاته الناقدة الجميلة .

أثناء خروجه ومغادرته، كان يقول : قال " طباخ روحه " قال ! ثم تمتم : " جيل تعبان " .

(29)

فاكهة من شبّاكها !

خُذْ ملعقةً من أنفاسها عند أوّل الصحو ،

خُذْ قطرة من دمعةٍ من عينها سحّت هياماً أو اشتياقاً عند ساعة قبل الغروب ،

خُذْ نسمتين من هواء رقّ عند خصلةٍ تدلّت بهدوء من شعرها،

خُذْ سُلافةً من كأسٍ لم تكرعه هي عن آخره ،

وخُذْ صُبابةً من معتّقٍ لم تشأ هي أن تأخذه حتى الثمالة ،

خُذْ برقوقةً من عند نافذتها ، و مُشمشةً قبل هرسها من عند أوّل ميلٍ في الجدار ،

خُذْ فستقة مُقشّرةً من جيبها ،

خُذْ كسرة خبزٍ من نصفِ رغيفها ،

خُذْ ، واخلط الملعقة والقطرة والنسمتين والسلافة والصبابة، وارفق بالبرقوقة والمشمشة والفستقة التي بلا قشرٍ !

خُذْ ، من نصف الرغيف وترفّق بالماء لكي لا تجرحه،

خُذْ ، بعدما ينضج العشب ويكتمل دوران الخليط : رشفتين في أوّل النهار، ورشفة قبل نومك ، وستصحو بعد يومين مكتمل البهجة ، ستصحو طيّبَ الروح والرائحة !

(

(30)

بابور الدار

و"قلاّية البندورة" والعم أبو فتحي!

كان مطعم العائلة بجوار كنيسة الروم الأرثوذكس بمادبا ، وبالتحديد في الجهة المقابلة لها تماماً ، في عمارة العم المرحوم عطاالله المنصور الكرادشة (أبو نايل) رحمهما الله ، (كان مطعماً للعائلة من أوائل خمسينيّات القرن المنصرم و صار دكاناً لاحقاً بعد 1970) ، ولا يفصل بين المطعم و باب الكنيسة الخارجي سوى الشارع الصغير (ربّما أقل من عشرة أمتار) .

وكان الشارع الممتد من ساحة السلام حالياً وحتى مربعة أبي الزلف (أول طلعة اللاتين) يُسمّى شارع الملك طلال رحمه الله ، ولا يزال .

هنا كانت ملاعبنا و كان المطعم وكانت منازل العائلة والطفولة والحياة

..

كانت قلاّية البندورة اليوميّة أو المتعارف عليها بالبندورة المشرّحة والفلفل الحار و الثوم .

وفي مرّاتٍ عديدةٍ ، كان أبي (رحمه الله) يحاول أن يطوّر

الوليمة فيجعلها بندورة مفرومة باللحمة المفرومة ، و يطلب إليّ أن أذهب إلى السوق و بخاصة حين يكون في ذهنه أن يعدّ وليمته ويتناولها ، فأروح حيث يأمرني والدي ، وهناك أنادي بصوت الصبي الهاديء أو المتعب :

" عمّي أبو فتحي " ،

فيردّ بوجهه الناصع وهدوئه المعهود ، ويقول : آه يا عمّ خير شو بدّك ؟

فأقول : بيسلّم عليك أبوي و بيحكيلك بدّو (نصف كيلو أو كيلو) لحمة مفرومة خشنة .

فيضحك العم أبو فتحي (رحمه الله) ويقول و يسأل : اليوم " قلّاية أبوك " يا ولد ؟!

كان يبتسم بوجه ناصع اللون .

ذاك كان في القرن المنصرم وقبل خمسين سنة وأكثر .

و كان محل / ملحمة العم أبي فتحي في شارع السوق ، شارع الملك طلال بمادبا ، و محله يقع بين محلات عديدة أغلب أصحابها صاروا في ذمّة الله ، أعرفهم بالوجه والصوت والضحكة و التقطيبة ،

كنت كتبت في السيرة عن الشارع ودكاكينه ومحلاته

وصانعيه وذكريات، و عند تفرعات الشارع وامتداداته هناك لعبنا وولدنا وابتهجنا وبكينا وفقدنا عديد المحبين والأقارب .
هناك صنعنا الفلافل للناس وبعناها ولا نزال .

..

و كنت حين أرجع إلى الدار متأخراً ينهرني ابي ، ويقول : هل قلت لعمّك أبي فتحي أن يعطيك لحمة خشنة مفرومة كما نحبها ؟

و يتناول كيس اللحمة ، ويقول : هيك تمام .

تكون مفرمة خشبية أمامه وسكينته المفضلة و حبّات البندورة ورأس البصل و الفلفل و التوابع اللازمة .

ينتهي من تجهيز خلطته المفضلة وينادي : هاتوا البابور يا أولاد.

ثم ينادي هاتوا نكاشة البابور .

تبتهج المقلاة أو الطنجرة ، حسب كمية المكونات ، و تأخذ النار دورها ووقتها .

لم يكن يحب استخدام " البابور الأخرس " كثيراً ، كان يحب صوت البابور والنار ولونها .

..

والخبز كان " كماج الدار " أو أكون حملت العجين المقطع إلى

فرن مجاور في الحارة عند دار العم المرحوم زكي ثلجي حداد ، و رجعت به أرغفة مبهجة ساخنة لا يصح معها سوى التغميس واللقمة النقيّة والبابور وحوش الدار .

..

كنا نتحلق أكثر من عشرين شخصاً حول القلايّة ونأكل بأقصى نهمنا و بكلّ جوعنا و نشبع ونشبع .

وبعدها ننظر إلى الطنجرة أو المقلاة أو الصينيّة فنجدها طافحة بالخير كأننا لم نتناول منها شيئاً .

كانت عيون تقنع ،

وبائع نقيّ يذكر اسم الله على ذبيحته و في بيعه ويبتهج بالناس ،

وكان صانع الطعام قانعاً برزقه ،

وكانت الحارات تفيض عطراً وفاكهةَ قلوبٍ و مرحبا .

(31)

عن أبي !

كان يحبّ الله ،

وكان يكتفي بالماء القليل في إبريق الوضوء !

كان إذ يغضب ، تصير عيناه بلون الدم،

وحين يأخذه التعب :

كان يستحضر جدّته والبلاد ودكانه التي بناها في عمق المدينة !

وكان أذ يفرح ،

يضحك و يفيض الدمع من عينيه ،

و يمازحني بشتيمة الآباء و يقول :

" يلعن شيطانك " يا ولد !

كان يحب الله ،

و كان يحبّنا ،

و كان يحبّ الزيت و العنب !

كان يحبّ أن يرى الأرض خضراء ناصعة ،

و حين كنت أسأله : ما الذي تراه في الأخضر والماء ؟

كان يقول : نحن نحبّ التراب الندي

و أوراق الحياة والعصافير ،

نحبّها هكذا بلا سبب !

قال لي عن أمّه الجميلة ،

و عن أبيه الذي سافر إلى حروب لم يصنعها ،
ثم عاد موجوعاً إلى الأبد ،
و عن حارته وأرضنا عند البحر
و عن الصلاة و الكلام الذي يبوح به الأب إلى الولد !
كان يحبّ الله والبلاد و يحبّني ،
كان أبي ،
و كان ينهرني كلما غضبت ،
و يقول : فلتهدأ يا ولد !

(الرحمة لروحه)

(32) مادبا :
سيرة المطارح والسوق العتيقة
و حجارتها و"عرباياتها" !

في كلّ الأحوال والمرّات التي أقترب فيها من " كتابة خاصّة " عن مادبا ، أسترجع ذاكرة الكتابة و أقف عند " نصّ " كنت كتبته ونشرته في العدد الأوّل من مجلة مادبا التي كانت تصدر عن مديرية الثقافة بالمدينة و كنت محرراً فيها مع نخبة مهمّة من الأسماء الطيبة ، و كذلك أسترجع قولاً أكرره وكنت أطلقته في احتفال مهيب بوسط المدينة .

النصّ كان بعنوان " مادبا مدينة الحنطة والحدارة العتيقة " والعدد الأول صدر في تشرين الثاني 1996، أمّا الجملة التي قلتها فكانت : أن مياه مادبا تصلح للتعميد وللوضوء في آن واحد معاً، وقلتها في يوم 8 تشرين الأول من عام 2004 !

عنوان النص صار متاحاً ويستخدمه عديدون في مناسبات عديدة ، وجملة الماء يقولها كثيرون في مناسبات و أوقات تتحدث عن العيش والمحبة والخير والحق والجمال .

والآن ، تكاثرت عليّ الحيرة والنصوص ، وعلى رأي الشاعر :

تكاثرت الظباء على خراشٍ

فما يدري خراشٌ ما يصيدُ

والأمر مربكٌ الآن و في المدينة وجوارها عناوين كبرى عاطفيّة ووجدانيّة وتاريخيّة و مكانيّة و ذاتيّة ، و سأحاول أن ألتقط من قلبها وروحها ما يمكن أن يظلّ في الذاكرة .

(32 _ 1)

شارع طلال في مادبا !

(شارع الملك طلال)

في المدينة ، كان ولا يزال ثمّة شارعٌ نعرفه ويعرفنا ، و يمتدّ من ساحة السلام حالياً ، قرب كنيسة الروم و إلى جوار بلدية مادبا الحاليّة ، و حتى مربّع السوق (مربعة أبي الزلف) التي تتفرع من عندها شوارع إلى الجنوب والشرق والغرب و الشمالٍ ، فمنها ، من المربعة ، نعود شمالاً في شارع الملك طلال ، و غرباً باتجاه مباني الجميعان والصلولين والمرزوق والعنّيني والكرادشة والعزارة و الحمارنة والمنصور ، و سواها من العائلات .. فيما نتجه جنوباً باتجاه طلعة اللاتين والمخفر القديم (السرايا) و يضم في جانبيه أسماء عديدة و عائلات و محالّ تاريخيّة ، و نتجه منه شرقا حيث نزول العجة والحبش وحارة السلايطة والسماعين

والمصاروة والمعايعة وجيرانهم ومن جهات الجنوب والشرق للسوق هناك نقترب من حارة العزيزات وتفرعاتها .

وهناك عائلات تاريخيّة من الديار الشاميّة والنابلسيّة و هناك عدد من الأهل الذين لجأوا إثر نكبة فلسطين أو النازحين بعد النكسة .

وهناك كثير من عائلات بني حميدة التاريخيّة الذين جاؤوا إلى مادبا منذ زمن بعيد و اتخذوا بيوتاً لهم في وسط المدينة القريب إلى الجهة الشرقيّة .

المربعة مركز رئيس تتفرع منه العلاقات والاتجاهات ويوصل بنا إلى جميع أطراف المدينة بالكنائس والمساجد والعائلات والحارات شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً .

..

الأمر ليس تأريخاً ، بل نبش للذاكرة لمحاولة حصر أسماء في شارع السوق فقط ، في شارع الملك طلال .
الشارع يأخذنا في الذاكرة وإليها .

..

الحديث عن الشارع القصير ، شارع طلال .

فيه عديد الأسماء التاريخيّة ، وشارع طلال فقط يمتد من ساحة السلام حتى مربعة أبي الزلف .

هكذا كان منذ ستينيّات القرن المنصرم .

و أتحدث عن الذي في ذاكرتي منذ 1960 وحتى أواخر 1990 م .
..
في شارع طلال كانت أسماء كبيرة وتاريخيّة للعائلات ولأصحاب المحال التجارية ، نحاول أن نستذكر أسماء أصحاب المحال التجارية، ونترحم على الراحلين و نسأل الله الصحة والبركة ، ثمّة منازل وبيوت عديدة لعائلات الكرادشة على تنوّعها ، وهناك توجد :

دكاكين :
الأعمام عواد الفراج (بجانب أيولا حالياً) .
محددة الجريري ،
مطعم شاهين (دكانة في ما بعد) ،
و العم الغالي محمد البشير الشوابكة ،
و سالم الفراج و يوسف الفراج (الصوجان) .

و العم مجلّي المصالحة الشوابكة ،
والعم أبو عبدالله الشوابكة ،
و منازل آل أبو ناصر الكرادشة ،
و شوكت الكرادشة و أخوه (منجرة) و دارهم ،
الحمارنة ، جورج وأخوته (ستوديو) ودارهم
حنّا زاده (محمص وبهارات و بن) ،
الصيدلية المركزية (أبو العراج) ،
صالون الحلاقة _ جهاد البجالي ،

وفي أول الشارع الفرعيّ كانت محلات الطوال للأدوات الكهربائيّة ، و المرحوم سامي العزارة الكرادشة و محل سليمان

السرياني لبيع الدجاج اللاحم .
أحمد العباسي (حلاّق) ،
أبو زر (محل خضار) ،
خليل القسوس وآل القسوس ومنازلهم ،
محلات الحشايشة (نوفوتيه و أحذية) _ المرحوم عوض وإخوته ،

يعقوب العلم ،
محل أبو شامة ،
الحاج ضيف الله أبو يحيى ،
العزارة إخوان (نوفوتيه) ،
العم أبو ميشيل الأرمني (الإسكافيّ الرائع) ،
أبو بكر أصلان (حلويات) .
الهلسه لمواد بناء ،

و في المربعة كان باعة الخضار و مزارعوها يجلبونها إلى السوق ،
و كان العم أبو وهيب أبو ناصر الكرادشة المشرف على التبادل التجاريّ في السوق بين المورّدين والمزارعين وتجّار السوق وكان يُعدّ صاحب أوّل حسبة للخضار والفاكهة في المدينة في ستينيّات وسبعينيّات القرن الفائت .
ثمّ عيسى أبو الزلف / دجاج ، و مطاعم قديمة رحلت .
ثم هناك في أول الطريق إلى دير اللاتين كان محل الحوراني (أبو إلياس) .

و مقهى عمر الذي هدموه قبل سنوات قليلة بعدما كان

علامة مهمّة في تاريخ المدينة .

...

و نعود في الشارع نفسه وبشكل عكسي / الجهة المقابلة :
أبو الزلف (خضار) ،
آل القعيسي الشوابكة (محالّ للحوم) ،
أبو خالد التين (مطعم) ،
آل برهم (خضار) ،
العجيلات ،
موسى ياغي وأخوته (دكان و أحذية) ،
ملاحم آل نصار ،
ملاحم أبو سبيتان ،
المختار الحمارنة (نوفوتيه) ،
عواد الشوابكة (قماش) ،
آل القرّاعين الكرادشة (أدوات منزلية وتجارة) ،
فهيد الشوابكة (ملابس) ،
أبو إحسان الحمارنة (نوفوتيه وملابس) ،
ملحمة أبو فتحي أبو تينه ،
صالون المدني (بسام) ،
الصفدي للساعات والعطور ،
محل عبد الحميد زعتر ،
محل الغزاوي لصيانة التلفزيون والراديو ،
مكتبة الكرامة ،
أبو نافز للبوظه والمثلّجات ،
افتيم الحلاق ،
مكتبة النحاس/ فراس وقبلها مكتبة البوري ،

محلات الفرهود ،
البياري للزجاج ،

سمعان السرياني (مكوى) ،
ومحلات البشير الشوابكة حتى الآن ،
ثم الكنيسة والشارع الفرعي (السياحة والمسجد) .
و مدرسة الروم .

(32 _ 2)

مربّعة أبي الزلف
و مقهى عمر
ومكتب عجيلات للصحافة !

في مادبا العتيقة ، في الفترة ما بين (عاميّ 1975 و 2005) وقبل ذلك بكثير ، كان الوصول إلى السوق أمراً متيسّراً أكثر ممّا هو عليه الآن ، فحركة المركبات لم تكن شهدت تحوّلاً فارقاً في حجمها و غاياتها ولم تكن السوق شهدت بعدُ أعمال التطوير

والتبليط و توسعة الأرصفة و زخرفتها .. كنّا نعدّ وسط السوق ، أو ما يُعرف بـــ " مربعة أبي الزلف " ، مكاناً مناسباً لكي نلتقي عنده ، فالدكاكين القديمة تجذب من كانوا مثلنا منشغلين في الحديث عن الذاكرة والمطارح الجميلة و السنوات التي كان يعلو فيها نشيد الحكمة و ترتفع عندها مناديل المرحبا و الوجوه الطافحة بالخير والطمأنينة .

...

عديدون كانوا يتخذون من رصيف مقهى عمر مكاناً للقاء وللاستراحة و لتزجية الوقت ، فيما كان كثيرون يعلون من قيمة ورق الشدّة ويتحلّقون حول طاولات اللعب ولم تغب حجارة النرد على فضاء المقهى والرصيف .

...

وقبل أكثر من أربعين سنة :

في النهار ، قبل الظهر ، كان " الغالي نبيل عجيلات / أبو بسّام " يملأ المكان حبوراً وضحكاً وتعليقات ساخرة و يحرص على أن يحصل كلّ واحد منّا (من أصدقاء و زملاء ومتابعين ومختصّين) على نسخته من (عالم المعرفة) و (عالم الفكر) و (الموسوعة الصغيرة) ، وقبل ذلك كانت مجلة الوطن العربيّ الأسبوعية والمستقبل و الحوادث و سواها تشهد تنافساً على شرائها واقتنائها ومتابعتها .

.. ولا تنفع زيارة مكتب الغالي نبيل عجيلات في ذلك الوقت

/ وكالة صحافة و إعلان / من دون القهوة التي يصنعها بيديه، و في كثير من الأوقات شهد المكتب سجالات سياسيّة ثقافيّة اجتماعيّة حين كان يؤمّه نفر من أصحاب الرأي والكلمة والحكمة .. والآن صرنا قليلاً ما نختلف إليه (نزوره) فالأحوال تبدّلت والشوارع صارت ضيّقة رغم اتّساعها و ما عادت صحف ومجلّات عتيقة أثيرة تصدر أو ما عادت تحمل الروح ذاتها .

...

ما زلنا نتذكّر (اصطلاحات و صيغ شعبية كثيرة) كان نحتها و اشتقّها الصديق الصحافي نبيل و أكوام عروق الحمّص الأخضر وقشور الفول الطازج الأخضر و بقايا البطيخ ، تلك كنّا نتناولها بشكلٍ يوميّ في مواسمها الجميلة ... وكانت أسماء عديدة تسجّل حضورها اليوميّ في السوق وعند أبي بسّام ، أسماء كثيرة منها من رحل إلى جوار ربّه و منها ممّن لا يزالون على قيد الحياة من الأصدقاء والأحبّة .

كانت أسماء عديدة تلتقي و تصنع الكثير من حالات الحوار والنقاش و تفتح بوابات الوعي ، كانوا يلتقون من وسط مادبا و من غربها وشمالها وجنوبها وشرقها و من القرى والبلدات المجاورة .

.. كانت السوق عامرة بأصوات الذين نحبّهم من الباعة وأصحاب الدكاكين و الأصدقاء و المتسوّقين وكانت المناداة طقساً

جميلاً في السوق ، سواء أكانت بقصد البيع و التسويق أم كانت بقصد الحديث مع الأشخاص وجلبهم أو دعوتهم للحضور (و لا زلت أتذكر أن مزارعي الخضار والفاكهة في القرى المجاورة و المناطق القريبة كانوا يبيعون محاصيلهم في المربعة و جوارها و كانت حركة البيع تشكل مشهداً مشابهاً لسوق الحسبة / الجملة ، مثلما كانت تباع ولا تزال الأعشاب والحشائش المفيدة التي تنفع للتناول والطبخ) .

...

في السوق ، كان السؤال عن الصحة والحال و العمل وكانت كلمات الاطمئنان الدائمة على ألسنة أهل السوق الذين باتوا أصدقاء وجيران رائعين و صرنا جزءاً منهم .

.. في السوق العتيقة وفي (المربعة) وفي مقهى عمر ، هناك تشكلت علاقات وتشابكت صداقات و سجّل كثيرون مواقفهم و وضعوا بصماتهم في دفاتر الأيّام .

...

في المنطقة الواقعة إلى الخلف من مقهى عمر في المساحة القريبة من تلّة مجاورة لـــ دير اللاتين ، وهناك في الجوار المحيط منازل آل الجميعان و ماضي و الحمارنة و العزارة والمرزوق و العجيلات و الرحاحلة وفي جهة أخرى عشائر السلايطة والمعايعة والعزيزات و كثير من العائلات والعشائر الطيّبة المحترمة كلّها ، ولا أستطيع ذكرها جميعاً خشية السهو ، هناك كانت ولادتي الأولى في سنة 1956 ، و من هناك بدأت رحلات التعب والحياة ، لكنها لم تبتعد عن أجواء السوق والمنازل العتيقة .

...

كنّا نلتقي ، بشكلٍ يوميّ ، أسماء عديدة من مطارح المدينة المتناثرة كلّها ، من جهات المدينة الجغرافيّة كلّها ومن عشائرها وعائلاتها ، من غربها وشرقها وشمالها و جنوبها و وسطها و مخيّمها ، كنّا نلتقي ونشرب قهوتنا التي بلا سكّر وفق شروط صحيّة كان يفرضها الغالي نبيل عجيلات ، و كنا نتفق ونختلف و نتفق ونختلف ونتفق ، ونحمل صحفنا ومجلاّتنا و نغادر إلى بيوتنا الصغيرة في انتظار أن نلتقي في يوم جديد .

.. كنّا نلتقي لنختلف ونتحاور ، لكنّنا أحببنا الناس والمدينة .

...

أسماء عديدة ، خاضت حوارات السوق ، فالمرور حوار و المرحبا حوار والشراء حوار والجلوس في الدكاكين وعند أبوابها حوار والاقتراب من المقاهي حوار ، عديد منهم صاروا أعياناً و نوّاباً و وزراء و مسؤولين مؤثرين و قادة رأي وسياسيّين و قادة اجتماعيّين ، وكذلك صاروا مهنيّين متميّزين ، ومن هناك انطلق وتألّق وحلّق إعلاميّون وكاتبون ومثقفون وصحافيّون .

...

لماذا الحديث عن السوق الآن ومربعة أبي الزلف و مقهى عمر و نزول العجة و مربعة الحبش / السلايطة و طلعة الدير و كنيستي اللاتين والروم والمسجد العمريّ العتيق (مسجد الحسين حالياً) ؟

.. لا سببَ محدّداً للاستذكار أو للاسترجاع أو لسحب وريقات من دفتر الذاكرة ، لا سبب واضحاً سوى أنّنا نريد أن تظلّ المدينة في البال .

...

هكذا ، من دون كثير تزويق أو موارية : لا نزال نحبّ المدينة والناس ، نحبّ مادبا .
هكذا ومن غير موارية : نريد أن ترجع تلك الأيّام .

وأذكر هنا ومن باب الحفظ والتوثيق والتأريخ أن أوّل مسجد في المدينة كان مسجدها العتيق بوسط البلد وفي وسط السوق وكان اسمه المسجد العمري و حالياً اسمه مسجد الحسين ، وهذا المسجد كان تبرّع بقطعة أرضه الحالية شيخ من شيوخ عشيرة المرار العزيزات لكي يستطيع المسلمون أداء صلواتهم .

(32 _ 3)

عربايات مادبا !

في مادبا ، وفي وسطها على وجه التحديد ، كانت هناك " عربايات عديدة " تبيع للناس ما يشتهون ، و " العربايات " تلك جعل منها أصحابها شكلاً جديداً للصبر وللحياة و لاحتمال التعب وللكدّ الجميل و صنعوا منها فرصاً للعيش و تاريخاً من الحكمة .

كلّ " عربايه " منها كانت عنواناً لقصة ولرواية و لذاكرة ،

عند كلّ عربايه كانت تُنسج الحكايات الشعبية اليوميّة و يصنع المشترون أوقاتهم هناك .
و" العربايه " كانت متجراً متنقلاً أو مصنعاً صغيراً و فيها كان يجد الناس ما يشتهون و يطلبون و بأسعار لا تقهر النفس ولا تحرق الجيوب .

..

والمهم في الأمر ، أنّ أصحاب " العربايات " تلك ، ظلّوا على طريق الحق والخير واللقمة المغمسة بالصبر و الرضا و عاشوا يحبون الناس و يحاولون الوصول إلى مستوى طيب من العيش لهم ولأسرهم .

العربايه كانت ولا تزال قصة أخرى ، فيها وعندها أسرار المكان والزمان .

وأستذكر الآن عدداً من " العربايات " الأكثر شهرة في المدينة منذ ستينيّات القرن المنصرم و حتى آخره ، و أجد أن المدينة لا يمكن أن تنسى أو تغفل " عربايه ساندويشات وفلافل " العم الراحل صالح شاهين قبل أن يستقر به الأمر في مطعمه الخاص و "عربايه سحلب وهريسة و عصائر " العم الراحل أبي أمين، و " عربايه ترمس " الراحل عبد اللطيف / الأخرس و هو من أبناء عمومتي القريبين ، و أخيراً " عربايه خضار و فاكهة " الأخ الكبير والعم المرحوم عيسى الخريشاوي ، قبل أن يركنها و يتفرّغ لدكّانه الصغيرة ، إلى أن توفاه الله.

...

تلك عربايات أنتحت قصص حياة ومواقف و صبر ولم يمدّ أصحابها أياديهم إلى الآخرين ولا إلى جيوب الفقراء ، بل

كافحوا و تعبوا و شقّوا الدروب نحو الطمأنينة والاستقرار .

...

أولّها عربايةَ العم صالح شاهين وكانت تجمع الناس حولها في مربعة أبي الزلف في وسط المدينة و بخاصة بعد العصر وحتى الليل في ستينيّات وسبعينيّات القرن الفارط .. و آخرها عربة العم الراحل عيسى الخربشاوي ،التي صنع الراحل من خلالها حكاية إنسانية وترك سيرة طيبة و أسرة تحب الناس .

" العربايات " عناوين بهجة رغم البؤس الذي يكتنف ملامح أصحابها .

والعربايات كذلك تحفظ تاريخاً غير مكتوب للحارات وللأسواق وللمدارس و للمدن .

(32 _ 4)

عن الشارع السياحي وذاكرات الطفولة !

قد لا تستطيع مؤثرات عديدة أن تشدّ المرء إلى البوح أو إلى الغوص في عمقِ مشهدٍ ، لكنّ " إعادة ترتيب " المكان وحجارته تدفعنا غلى الانخراط في حكاية استرجاع و شغفٍ و قول واستذكار ، و كثير من الشجن الذي يخالطه الدمع أو الابتهاج والشوق !

في الشارع السياحيّ بمادبا ، الآن ومنذ وعينا على الدنيا ، تكتظ الحياة و يعلو لون الورد و تطوف روائحه الأرجاء وتعبق و تتمايل الحجارة كما تفعل الأغصان عند انتشائها أو حين يلذّ لها نغم أو هواء أو صوت .

انتويتُ منذ زمن بعيد الحديث عن الحجارة العتيقة ، وفعلت في هذا الجانب الكثير ، فطفتُ وكتبت و خبّأتُ في الضلوع والدفاتر وجوه الناس و أشياء غالية من ذاكراتهم .

و هذا الشارع ، لم يعرفه أحد من جيلي مثلما عرفته ، ولم يقترب منه أحد من المثقفين أو الشعراء أو الصحافيّين أو الكاتبين أو المسرحيّين أو من عاشقي الأماكن ، مثلما فعلتُ أنا منذ الطفولة والصبا واليفاعة والشباب والكهولة والآن .

و ذلك بسبب من قربي إليه و التصاقي به سكناً وعيشاً وطريقاً .

كنتُ أذرعه جيئة و ذهاباً في اليوم الواحد مرّات عديدة ، ففي آخره وعند أطرافه وبين ثناياه و تفرعاته ، عشنا وكانت لنا مساكن طيبة رائعة الجوار والخير والشجر والبهجة ، و عند أطرافه كانت أرزاق العائلة في المطاعم والعربات وسواها ، و في الجوار منه وقريباً كان المسجد وكانت الكنائس و كانت في طرف لا يبعد عنه كثيراً ولادتي .

و كنت أذرعه يومياً ، وبخاصة في السنوات 1964 / 1965/ 1966 / 1967 و ما بعد ذلك ، فمن هناك كانت الطريق إلى المدرسة

والدار والمطعم : الدار كانت غير واحدة فكنا سكنّا في المكان السياحي العريق قبل اكتشافه (المتنزه الأثري) في الواجهة المقابلة للشارع / جوار محلات حكم حالياً .. و كنا سكنّا في بيوت عائلة أبي قعنونة و كذلك منازل الرواجيح و الحشايشة المجاورة لمركز الزوّار حالياً و كذلك عاش أفراد من العائلة الممتدة قرب منازل آل (أبو مرعي) و في جوار آل(أبو الزلف) والعويمرين و غيرها و في حارة أبو دقر المجاورة .

والمهم في ذاكرة الشارع وأطرافه و تفرعاته أنه احتضن أسماء متنوعة لعائلات و أسر و أفراد و ساكنين ، ففي الشارع و جواره و قريبا منه كانت عائلات المعايعة و فروعها المختلفة و السلايطة والصناع والعويمرين والعجيلات وأبو الزلف والبجالي و الجعنيني و المصو والسماعين والسمعان و الحمارنة و الكرادشة و الشحاتيت و المدني و الحدادين والحداد والنصراوي و الدوايمة و أبو مرعي و الديري و داؤد والشخانبة والخربشاوي و الحامد والحموي و السرياني والبيروتي والفاعوري والمعاني الذين امتلكوا محلات في المنطقة وسكنوها منذ زمن بعيد (كنا متجاورين تقريباً ، وبخاصة مقابل مبنى مديرية السياحة الجديد (مكان منزل الشيخ المرحوم صقر الحامد) وعريضة و ضابان العساف و المدانات وعائلات الحي الشرقي و الجمعاني والسيوري والرواحنة و جيرانهم الطيبين والعجة وأبو هنيّة والحايك .

و هناك الكثير من الساكنين والعائلات العريقة التي كانت قريبة من الشارع السياحيّ

ولا أريد الخوض في التفاصيل حتى لا أقع في السهو أو تخونني

الذاكرة .

كان شارعاً ولا يزال طيبّ الروح والفاكهة ، وفاكهته الناس بألوانهم وأحوالهم و تفرعاتهم وعاداتهم وتقاليدهم .و كان في الشارع عدا المعالم التراثية والسياحية والعائلية ، معالم شخصيّة راقية منها الراحل الكبير المرحوم العم الدكتور ميشيل المعايعة والراحل المرحوم العم الدكتور نقولا وكانت صيدلية مادبا الجديدة علامة فارقة في الشارع و محل العم الراحل (أبو زكي دليل) للقماش وتوابعه و كثير من الأسماء التي أحببناها ولا نزال .

أعرف أسماء المحال التجارية المجاورة كلها ، لكن القول اليوم عن الشارع ذاته .

و الحديث هنا فقط عن الشارع السياحي و دخلاته و تفرعاته الصغيرة ، والشارع ممتد من طرف ساحة كنيسة الروم مقابل ستوديو جورج ، نزولا حتى مركز الزوار .

..

نرفع التحيّة لكل من يجتهد ويحاول أن يصنع شيئاً للناس وللذاكرة ولمادبا وللبلاد الطيبة .

و لا يزال في جعبتنا الكثير من القول وفي الذاكرة الكثير من الملامح والصور والأسماء نحاول أن نسترجعها بين وقت وآخر .

و أرجو أن يتقبل سهوي من سهوت عن ذكره أو من لم ترد عناوينهم في هذه الكتابة المستعجلة .

وأرجو أن يتفضل العارفون بإضافة وتصحيح ما يرونه مناسباً.

(32 _ 5)

أحبّ الشوارع و أكثر !

بعدما نفرغ من أداء صلاة العصر في مُصلّى المجمّع / مجمّع السفريات ، نخرج منطلقين باتجاه السوق ، في أغلب الأوقات من السنة ولمرّة في الأسبوع في الأقلّ ، هذا قبل " وباء كورونا " .

كنّا ، صديقي و أنا ، وعلى الدوام ، في حاجة إلى تجديد علاقتنا بالمكان ، ، فنصل إلى مفترق الشوارع في سوق الحمايدة و نصعد من هناك إلى مربعة السوق و وجهانا إلى الغرب ، إلى اليمين محال الفالوجي و الحاج مطاوع و الشارع يؤدي إلى المبنى الجديد لمدرسة الفسيفساء و حارة السرياني والزاغة و المدني و سواهم.. و إلى يسارنا مبنى اليعقوب / الدكتور رياض و عيادته و منزل الشهيد الدكتور نورس / المنزل العتيق و هناك منازل ودكاكين للسلايطة و عيادة المرحوم الدكتور عزمي و سواها .. و في اتجاه الغرب يكون الصعود إلى سوق الذهب و محلات الحبش و طلعة العجة و المسجد القديم .. ولا أريد أن أذكر هنا أسماء العائلات التي تقطن وتملك البيوت في المنطقة في حارة السلايطة والمعايعة و سواهم ، حتى لا أقع في ورطة النسيان !

وننحرف باتجاه اليسار و ندلف إلى شارع الشهيد الدكتور نورس اليعقوب و حارة الحوراني و مشغل العمارات لصيانة

الكهربائيات و من هناك نترك منازل الفرح إلى يسارنا و نصعد في طلعة القنصل والضباعين واليعقوب والفرح ووصولاً إلى جمعية العزيزات أو منازل المرحوم أبي عناد الخزوز .. هناك نلتفت إلى جهة اليمين و نرى بوضوح كبير وجه وصورة و حضور الصديق الكبير المرحوم إميل العزيزات ، نطرح على البيت السلام و على من فيه و على من كانوا يشكلون مساحات من الجدل الناصع من أبناء المدينة والجوار ، و نستكمل المسير والسير فندلف إلى جهة اليسار مرة أخرى ثم بعد ذلك يأخذنا الشارع الفرعي باتجاه اليمين و يوصلنا إلى بيوت العلامات والطوال و نتوقف عند بيت الأعزاء يوسف ونبيل الغيشان و نطرح السلام على الحاضرين والغائبين .

تأخذنا الطريق إلى اليمين ثم اليسار فنهبط من هناك إلى آخر ما كان يُعرف بـــ شارع العشاق و نتوقف عند المتحف و عند بيوت الطوال وبخاصة بيت ودارة الصديق الدكتور سهيل الطوال وأخوته و بيوت عائلة العلم وسواهم هناك ، و نلتفت إلى حيث كان كوكو زاكي .

لم نبخل بأن نطرح السلام و المرحبا .

نحبّ المدينة و نعشق أن نسترجع و نقرأ وجوه الغائبين .

ونمشي باتجاه الشمال رجوعاً إلى شارع العشاق وذكرياته و عند طلعة المرزوق والصلولين نتوقف و نقول أنّ أسماء عديدة نحبها كانت هنا وكانت تمر من هنا و ربما القليل منها لا يزال في الجوار ، و قلت لـــ رجا : من هنا نستطيع أن نصعد إلى السوق و

مقهى عمر و طلعة دير اللاتين و في الجوار مسجد مادبا القديم و كنيسة الروم و بعد حوش الجميعان في مربعة السوق ، هناك قرب تلة صغيرة خرج ماجد شاهين إلى الدنيا قبل نحو أربعة وستين عاماً .

تأخذنا الطريق في الاتجاه ذاته و كنا نرى ملامح ومعالم و أماكن ، مركزي الشباب والشابات و ذكرياتهما و منازل أقاربنا الحمارنة و أقاربهم الكرادشة و حين وصلنا إلى مربعة المرزوق و القراعين والحمارنة صعدنا من عند منزل العم المرحوم (أبو مرعي الحمارنة) باتجاه منازل المطالقة ومركز مادبا لتدريب السواقة ، أتوقف مع صديقي عند منزل المرحوم صليبا المطالقة حيث كان عمي المرحوم الحاج صالح يستأجر بيتاً عنده في الأعوام 1968 / 1969 / 1970 /1971 / 1972 من القرن المنصرم .

من هناك ننحرف إلى يسارنا أو إلى الشمال في شارع فرعيّ هو شارع حارة المنصور كما يعرفه أهل المدينة ، قبل وصولنا إلى حارة القسوس و أبي ناصر .

كل الحارات الصغيرة التي ذكرناها هنا في المسافات هي حارة واحدة كبيرة .

في شارع المنصور ، بيوت و منازل الأهل والأصدقاء والأقارب ، الحمارنة والجابر والمنصور و الكرادشة و هناك ملاعب الصبا ، نعم كانت حارتي أو واحدة من حارات الشباب والطفولة ، وهناك مطعم العم المرحوم صالح شاهين لا يزال قائماً .

نعبر الشارع و ننطلق إلى جهة كنيسة ومدرسة الروم الأرثوذكس و باتجاه دوار البلدية ، وهناك نسمع أحدهم ينادي بصوت ملأ المكان ضجيجاً .

كان صوت الغالي الصديق التاريخيّ أحمد الشوابكة .

نتوقف ونقف معاً بعد احتضانات ، عند يمين الدوار ،و نستذكر ونقول كلاماً عن أحوال كثيرة في زمن لم يزد عن نصف ساعة .

نترك الحبيب أحمد ليذهب إلى أحواله و نهبط من الدوار إلى الشرق قاصدين الرجوع إليه ، إلى حيّنا الجميل و مكاننا الأثير .

عند كنيسة الروم الكاثوليك ، و يسمونها كنيسة الحدادين ، لأن أغلب رعيّتها من عشيرة الحدادين الرائعة ، عندها انحرفنا إلى اليسار وهناك كانت حكاية العائلة ، عند منازل أبو دقر الخماش .

هناك أقول لـــ صديقي عن كل الحكايات العتيقة وبيتنا القديم و الذكريات و العائلات الجميلة التي كانت ولا زالت هناك واسترجعت أسماء الغائبين والغائبات ، و هناك نشاهد منزل آل ملحيس العتيق الذي تم تأسيسه في العام 1936 ولا يزال نظيفاً و يحتل مكاناً مميزاً في الشارع والحارة .
و نقترب من بيوت ومنازل لعائلات عديدة كان ولا يزال بيننا وبينهم فيض محبة لا ينقطع .

وكأنما صمت ران بعد ذلك ، لم ننبس ببنت شفة .. أكملنا

سيرنا وسيرتنا الصامتة و رجعنا إلى شارع القدس / و جلسنا عند يونس بعد انقطاع طويل ، جلسنا ربع ساعة فحسب .

ثمّ عاد كل منّا إلى زاوية في منزله .
وبعد كل جولة مثل هذه ، لا أكتب ، بل أترك للذاكرة فرصة أن تستريح وتخزّن .

..

أحبّ المدينة والأصدقاء و أحبّ حجارتها التي تقول عنا و عن الحياة وعن وجوه الغائبين .

(و أي سهو عن تدوين أسماء أو شوارع أو عائلات ، يكون سهواً غير مقصود ، ولم تكن الغاية من هذه الكتابة أن ندون التاريخ كله أو الشوارع كلها ، الحكاية مجرد استرجاع آنيّ جراء مرور في الأماكن المذكورة) .

..

نوستالجيا ؟ !

فلتكن ولا ضير ولا عيب في الأمر ،

فمن كان منكم بلا ذاكرة و حنين و شوق ، فليراجع أحاسيسه.

(32 _ 6)

شارعٌ عتيق واسمه ميسلون !

و إذ أحاول ، أن أخصّص يوماً أو أكثر في الشهر أو في الأسبوع لإعادة اكتشاف واسترجاع الصور والمشاهد والحجارة و وجوه الناس و خطوات الطفولة والصبا .

و ذلك يكون بأنّ أقترب ، مثلاً ، من منزلنا القديم في شارع ميسلون بمادبا ، في بيوت آل أبو دقر الخمّاش جوار كنيسة الروم الكاثوليك / قرب دوّار البلديّة ، و أقف إلى جوار السور حيث تتدلّى وارفة أغصان بيلسانة عتيقة و بجوارها ياسمينة تفوح ، و في الداخل دالية وليمونة .. فأتناول " قطف حصرم " كما كنت أفعل و أحمل في يدي ما يلزم من ملح و أبدأ في التهام العنب الحامض ... و أقطف ليمونتين صغيرتين و أضعهما في جيبي لحين الحصول على رغيف ينفع لكي يحتضن الليمون ، هكذا كنت أفعل .. و أمدّ يدي فأقطف من الياسمين ما يكفي ليملأ رئتيّ ، أشمّه و أضمّه و أطوّحه في الهواء إلى هناك و أقول : اذهب أيّها الياسمين إلى حقلها و اقريء روحها السلام .

و يمكن ان أروح في الشارع باتجاه الشمال ، فأرى عند آخره

ملامح الراحلين ، على سبيل الاستذكار و ليس الحصر ، وجه وصورة العم كامل المصاروة ، و العم غالب أبو ناصر و الدكتور ميشيل المعايعه و العم سالم الفرّاج و العم يوسف الصوجان الفراج و العم خليل الجبالي والعم ّ أبا حسين الجابر و شقيقه العم جابر والعم صليبا المصو و الأعمام الراحلين من آل برهم و منزل ملحيس والعم عبدالفتاح أبو دقر والعم ياسين أبو دقر والعم سعيد أبو دقر و العم المرحوم جريس أبو الزلف كان أسرته تسكنٍ المنزل العتيق الواقع في بداية الشارع ، رحمهم الله جميعاً .. هؤلاء كانوا قبالة العين في الشارع على استقامته ، أمّا في تفرّعات الشارع فكانت أسماء كبيرة كذلك ورائعة .

شارع ميسلون " كان يتفرّع من الشارع الرئيس النازل من بلدية مادبا باتجاه الحيّ الشرقيّ / كان اسم الحيّ (حارة الرواجيح) .

شارع ميسلون يبدأ من سور كنيسة الروم الكاثوليك في جهة الغرب من الشارع ، وكانت مساكن (المرحوم جريس أبو الزلف / المرحوم كامل شاهين) تحدّ الشارع من الشرق .. ربّما كان عرض الشارع لا يزيد عن أربعة أمتار .

... كان الشارع يذهب باتجاه الشمال إلى تقاطعه مع شارع القدس حالياً .

على جانبيّ الشارع كانت عائلات طيّبة وأسماء تاريخيّة في مادبا وقتذاك وإلى الآن ، بعضهم رحلوا إلى القبور والموت وآخرون سافروا و القليل منهم ما يزال قريباً .

لو سرنا في الشارع من جدار الكنيسة باتجاه الشمال ، نستطيع أن نعدّ أسماء العائلات التي كانت تقطن على جانبيّ الشارع مباشرة :

في تلك المرحلة (أواسط الستينيّات وحتى أواسط الثمانينيّات) ، أبو الزلف / شاهين / أبو دقر / عنايه / العنبتاوي / المصو / برهم / جابر / ملحيس / حنانيا / المصو / الفراج / المعايعة / المصاروة / السريانيّ و أبو ناصر الكرادشة .

...

في الشوارع الفرعية والأزقة المتفرعة من شارعنا / هناك كانت عائلات عريقة تسكن ، وسأحصرها بين شارعين أحدهما قبل شارعنا من الغرب والآخر مباشرة شرقيّ شارعنا :

نصراوي / عجيلات / الصناع / الحيصة / حبش / وهناك أبو الزلف / حدادين / و سمعان والهولندي وجعنينه / وهناك في شوارع متفرعة مجاورة أسماء عائلات أخرى / الشوابكة / النوباني / القيسي / البطّة / العنبتاوي / الهندي / الريّان / حدّاد / المعايعة / الصفدي / الطوال / المصو / كلداني / الخنان الكعابنه / الطيّب / المحروق / الهندي / المحتسب / الضرابعة / السلايطة / الديري و أبو جودة .

و هناك عائلات كانت على امتدادات فرعية للشارع و منها عائلات المعاني و العنبتاوي و الفراج و الحمارنة و الشخانبة وأسماء أخرى سنكتب عنها في استرجاعات مقبلة .

أعتذر إن غاب عن ذهني اسم أو نسيت عائلة !

...

سردت الحكاية بوصفها جزءاً من ذاكرتنا الجمعيّة في مادبا ، وأتيت على حارتي القديمة (إحدى حاراتي العديدة) لكي أستذكر راحلين وددت أن أترحم عليهم بالحبّ كلّه :

العمّ المرحوم جريس أبو الزلف وكثير من عائلته وأشقائه / الجيران والأعمام المرحومين من آل أبو دقر الخمّاش (سعيد وياسين وخليل و العم أبو قاسم وسواهم من الرجال والنساء) / آل برهم ومنهم العم المرحوم أبو حنا وأخوته / الجار الكريم المرحوم العم صليبا المصو / الجار الكريم المرحوم خليل جابر الجبالي والعم المرحوم أبو حسين الجابر الجبالي والعم المرحوم جابر الجابر /والأستاذ المرحوم زهير عجيلات / العم المرحوم سالم الفراج) أبو خليل) / الجار الكبير المرحوم الدكتور ميشيل المعايعة / الجار والعم المرحوم يوسف الفراج (يوسف الصوجان) / العم المرحوم كامل المصاروة (أبو المنذر) / العم المرحوم غالب أبو ناصر الكرادشة (أبو حسام) .

ولا أغفل العم الشيخ المرحوم علي الخنان الكعابنة والحاج المرحوم العم حسن الطيّب والعم المرحوم علي العريوه الشوابكة و الصديق العم المرحوم زكي ثلجي الحداد (أبو فارس) و العم المرحوم سليمان الطوال (أبو واصف) والعم المرحوم أبو جورج السلايطة والعم المرحوم طالب الدرويش الشوابكة و الأخ المرحوم موسى النوباني و المرحوم العم زكريا الهندي .

و أسماء عديدة كانت في الحارة و غابت أو رحلت إلى مدن

أخرى او حارات أخرى .

و كان في نيّتي أن أصعد قليلاً إلى الدوّار و أميل في اتجاه السوق مروراً بقرب كنيسة الروم واقتراباً من مسجد المدينة العتيق ، وأقف هناك في المربّعة ، مربعة أبي الزلف ، و أبيع الناس ما يشتهونه من الفلافل و ساندويشات الحبّ ، كما كان يفعل الراحلون من أهلي ، و أرى الوجوه الجميلة المبتهجة تطرح و تتبادل المرحبا والسلام .

و أرى أن الحكاية لا تكتمل إلاّ بالانزياح باتجاه " طلعة الدير " ثم الانعطاف قليلاً بعد مقهى " عمر الواوي " العم الغالي رحمه الله ، وهناك في التراب أو في الفراغ الذي لا يزال على حاله ، أنادي على " ماجد " في القماط قبل 63 سنة .. هناك حيثُ ولدتُ و بُشِّرَ بي ولداً صبيّاً .

و في البال أن أصعد باتجاه مدرستي الأولى ، واسمها حينذاك مدرسة مادبا الابتدائيّة الأولى ، و هي مكونة من منازل جميلة مملوكة للعم المرحوم شريف أبو الغنم ، فأرى غرفتي الصفيّة الأولى ، حيث تعلّمت الحرف والكلام والكتابة والمحبة ، و للمناسبة فإنّ المدرسة لا تزال على حالها .

و قد أذرعُ شوارع المدينة ، جيئة و ذهاباً لكي أسمع أصوات الناي و أجمع ما تركته " آلات الحصاد " التي كانت تتوقف طويلاً عند محددّة العم المرحوم " أبو حسن الجريري و شقيقه عبد الله ، رحمهما الله ، في دكاكين العم المرحوم عطا الله المنصور (أبو نايل) رحمهما الله ، جوار كنيسة الروم ، و دكاكين أعمام

راحلين رحمهم الله ومنهم العم الكبير الحاج محمد البشير الشوابكة و العم سالم الفرّاج و العم حنا زاده والعم مجلّي الشوابكة و الحلاّق الأشهر إفتيم أبو إلياس و العمّ أبو نافز حمّاد و العم خليل القسوس و العم يعقوب العلم والعم الحاج ضيف الله و العم أبو بكر أصلان و آخرون عديدون لا يمكن حصرهم هنا ..و هناك كانت لنا ذاكرة ولا تزال .

والأماكن كثيرة والذاكرات غالية و واسعة و مربكة و مفرحة و قاسية .

في كلّ مكان لي حكاية و دفتر و و وجوه أحبّة .

في كل شارع ، حفرت من ملامحي ما يكفي لكي يُضاء الشارع بالخير و لو بعد حين .

عند كلّ شجرة ، داعبت الأغصان و غنّيت لها عن الزمن الجميل و عن بلاد المحبوب وعن الأمّهات النبيلات والآباء الطيّبين و عن الحارات التي تكتم السرّ ولا تبوح .
...

كان في نيّتي أن أفعل و أكثر ، لكنّني أكتفي بالشوق وبالذاكرة والحلم و بالصور التي نحملها عن الآخرين ويحملونها عنّا .

فالمنزل تهدم و أنشأ أصحابه بناية أخرى لا شجر فيها ولا بيلسان .

و المحددة صار في مكانها محالّ تحف و من فوقها مطعم سياحيّ

والمربعة صارت سوقاً للّحوم المجمّدة والأدوات المنزلية .

ووجوه عديدة غالية راحت في الفقد والغياب .
ونساء الحارات الوقورات ، اللواتي كنّ ينادين علينا و يسألن عن الأحوال وعن الأيام ، لم نعد نعرف عنهنّ شيئاً .

والجيران ،

الجيران والخلاّن ،

كلهم انشغلوا في الحياة فغابوا أو انشغلوا في الموت فغابوا .

و مدرستي الأولى ، التي تعود ملكيّتها للعمّ الشيخ المرحوم شريف أبو الغنم ، بقيت على حالها و تسكنها عائلات .
...

لم تعد الليمونة على حالها ولا البيلسانة ولا عش الحمام

لم تعد المطارح على حالها

لم يعد ينفع الكلام .

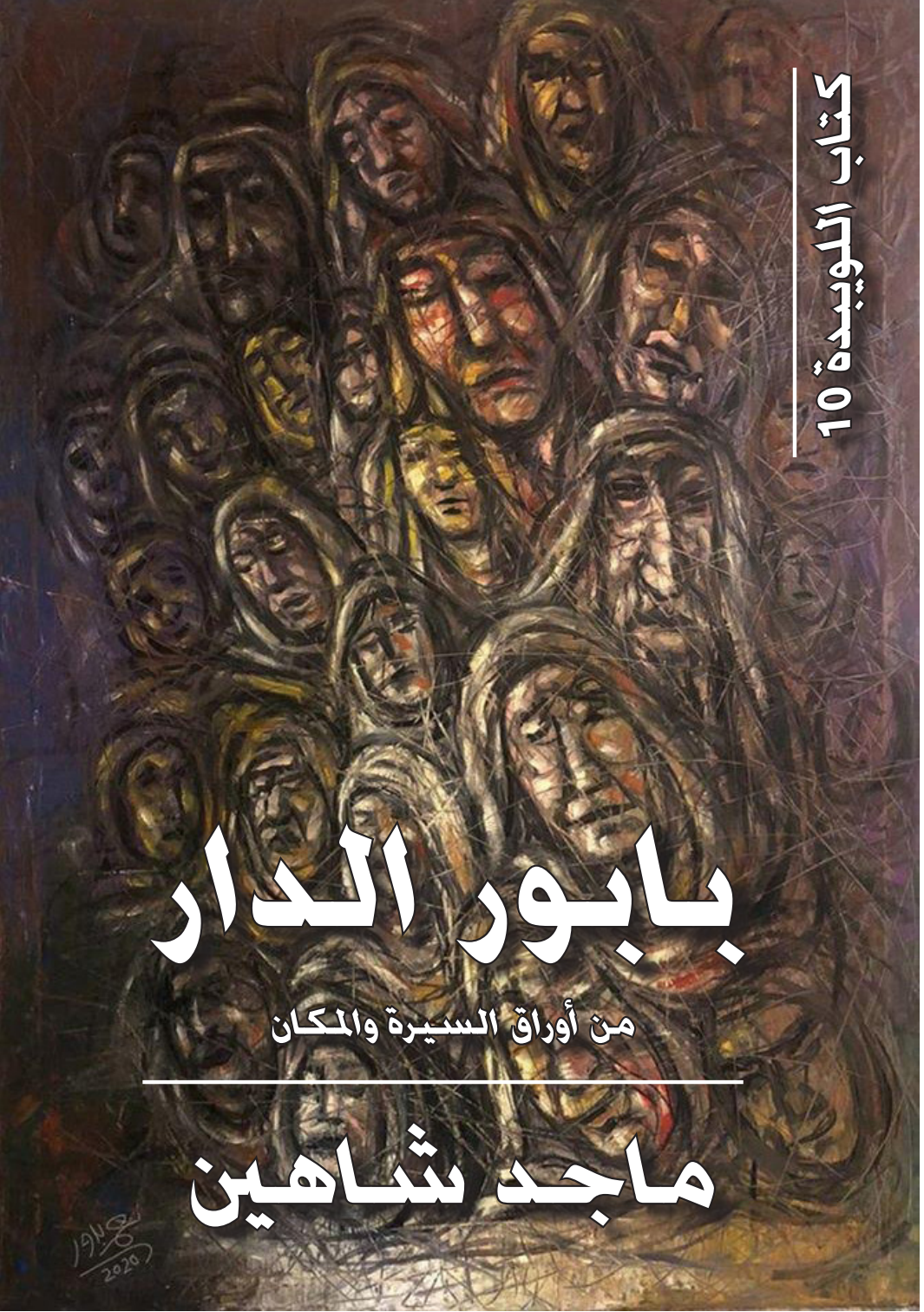

(32 _ 7)

و بعد ،

فالمَطارُ العتيقةُ ، التي لنا و تعرفنا و تعرف سحناتنا ولون ضحكاتنا ، لا تفقدُ الذاكرةَ و إنْ شاختْ أو تاه عنها ولدٌ أو نشفت فيها شجرة !

المطارُ ، هذه و تلك ، تدرك أنّنا مشوقون ولو طال بنا الجوى ،

وتعرف أنّنا نسعى إلى شجرها و وردها و فاكهتها ، ما استطعنا إلى ذلك درباً و ذهناً و ذاكرةً !

المطارُ ،
على حالها ،

تعدّ أباريق الشاي منذ ما بعد العصر ،

و تصعد فيها رائحة البنّ و تطيب أوراق الميرميّة حين يرشّها "حارس الذاكرة" بالماء !

المطارُ عناوين الروح حين ترقّ ،

وعناوينُ القلب حين يندلق منه الوجدُ !
المطارُ لنا و إنْ بدا النأيُ عميقاً أو بدت الدروب كالحة .